تفسير جزء يس

وفوائده وأحكامه

استنبط الفوائد والأحكام
فضيلة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر البراك

فسر الآيات
أ. د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

دار ابن الجوزي

تفسير جزء يس

وفوائده وأحكامه

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العسكر، عبد المحسن عبد العزيز
تفسير جزء يس وفوائده وأحكامه. /عبد المحسن عبد العزيز العسكر ـ ط١..- الدمام، ١٤٤٤هـ
٢٥٤ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٧٦ ـ ٨٣٨٩ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٤/١١٤٧٠

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٤٥
٢٠٢٣

طبع على نفقة محسن كريم
جزاه الله خيرا

الباركود الدولي: 9786038389768

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤٥هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام- حي الريان- شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر - القاهرة :
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣
٠١١١٢٤٥٨٤٤٤ - ٠١٢٨١٩١٤٠٠١

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
ibnaljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يسٓ

سورة (يس) مكيَّة، وعدد آياتها ثلاث وثمانون آية، وقد جُعل الحرفان في أولها ـ الياء والسين ـ اسمًا للسورة، ونظيرها في هذا (طه) و(ص) و(ق) و(ن).

وقد افتُتحت السورةُ بالقَسَم بالقرآن على رسالة محمد ﷺ، وأنه على صراط مستقيم، ثم نوَّه تعالى بأن هذا القرآن مُنزِّله العزيز الرحيم، ثم ذكر الغايةَ من تنزيله، وهو إنذار القوم الذين لم يُنذر آباؤهم، وأنه قد حقَّت على أكثرهم كلمةُ الشقاء، لذلك لا يؤمنون، فابتُلوا بكل ما يمنعهم من الإيمان من الأغلال في أعناقهم، والسَّدِّ من بين أيديهم ومن خلفهم، والغَشْي على أبصارهم، ثم يأَس اللهُ الرسولَ ﷺ من إيمانهم، وأن الإنذار وعدمه عندهم سواء، ثم ذكر ضِدَّهم ـ المنتفعين بالإنذار ـ وهم المتبعون للذكر الذين يخشون ربهم بالغيب، وأن لهؤلاء البشرى بالمغفرة والأجر الكريم.

ثم أخبر تعالى أنه الذي يحيي الموتى، ويكتب أعمالهم وآثارهم، وكلُّ ذلك في كتاب بيِّن، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: كتاب الأعمال، ثم أمَر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يضرب للمشركين مثلًا من الأمم الماضية المكذِّبة لرسل الله، وهم أصحاب القرية الذين أرسل اللهُ إليهم ثلاثةَ رُسُل، فكذَّبوهم وتطيَّروا بهم، وهدَّدُوهم بأن يرجموهم أو يعذبوهم، ثم ذكر قصَّة الرجل المؤمن من أهل هذه القرية، وأنه نصح قومه باتباع الرسل، وأعلن توحيده لله، وأن ما يُدْعَى من دون الله لا يُغني عن عابديه شيئًا،

فلا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًّا، إلى آخر قصة ذلك الرجل، وأنه صار إلى الجنة، وأن الله أهلك قومه بصيحة واحدة فخمدوا، وأن ما فعله أصحاب القرية مع رسلهم هو سبيل مَن سلف مِن أعداء الرسل، وأنهم حقيقون أن يَتحسَّر عليهم كلُّ من عَرف ما صاروا إليه، من الخزي والعار والبوار.

ثم رجع السياقُ إلى توبيخ المشركين من قريش وغيرهم على عدم اعتبارهم بالمهلَكين قبلهم من القرون، وأنهم جميعًا سيُحضَرون للحساب، ثم ذكر سبحانه بعضَ الأدلة على قُدرته على البعث، منها: إحياء الأرض بعد موتها، ومنها: سَلْخ النهار من الليل، ومنها: حمل الناس على الفُلك والأنعام، ثم ذمَّ المشركين بإعراضهم عن العمل بوصايا الله وعن آياته، وبترك الإنفاق مما رزقهم اللهُ محتجِّين بالقدر، ومسفِّهين للمؤمنين في إنفاقهم ممَّا رزقهم الله، ثم ذمَّهم بإنكار البعث واستبعادهم له، ثم هدَّدهم بصيحة تأخذهم وهم يختصمون، فيُشغلون بها عن أنفسهم، ثم أخبرهم عن وقوع البعث الذي مبدؤه النفخ في الصور، ثم تتلوها نفخةُ البعث من القبور، وهي المذكورة في هذه الآيات، ثم أخبر تعالى عمَّا يقولون عند ذلك وما يُقال لهم، وأنهم على إثر بعثهم من القبور يُحشرون ويُجمعون، الأولون منهم والآخرون، ويُجزَون على أعمالهم ولا يُظلمون.

ثم أخبر تعالى عن أصحاب الجنة، وعن أصحاب النار؛ فأصحاب الجنة في نعيم مع أزواجهم في ظلال، والربُّ يسلِّم عليهم، وأصحاب النار هم المجرمون، يُوبَّخون ويُهدَّدون بسبب عبادتهم للشيطان، وهنالك تشهد عليهم جوارحُهم، ويختم على أفواههم فلا يتكلمون، ثم أخبر تعالى عن قدرته على طمس أبصار أولئك الكافرين ومَسخهم، فلا

يستطيعون تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، وأخبر أن من يُعمِّره تعالى ينكِّسه في الخلق، ويردُّه إلى أرذل العمر؛ ليكون كما كان كالطفل في الجهل، ثم نزَّه تعالى نبيَّه ﷺ عمَّا يزعمه المشركون من أنه شاعر، وأن ما جاء به ما هو إلا ذكرٌ يذكِّر به وينذر من كان حيًّا، ويحِق القولُ على الكافرين، فلا يتذكرون ولا ينفعهم إنذار ولا تذكير.

ثم ذكَّر تعالى ببعض نعمه وآياته الدالة على قدرته ورحمته، وهي ما خلقه من بهيمة الأنعام، وما فيها من المنافع؛ كالركوب والحمل عليها، والأكل من لحومها، والشرب من ألبانها، ثم وبَّخ مَن كفَر بنعم الله ولم يشكره؛ بل أشرك به واتخذ آلهة من دونه لا يستطيعون لعابديهم نصرًا، بل هم محتاجون لنصر عابديهم لهم، ثم سلَّى نبيَّه ﷺ عمَّا يقوله المشركون بأنه تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون.

ثم خُتمت السورةُ بذمِّ الإنسان الكافر بالبعث المخاصم لربه، الجاهل بحقيقة نفسه، مع ذكر جُملة من أدلة البعث؛ منها: ابتداء خلق الإنسان، ومنها: خلق السماوات والأرض، ومنها: كمال علمه تعالى، وكمال مُلكه، ونفاذ أمره.

فعُلم مما تقدم أن هذه السورة كغيرها من السور المكية، مَدارها على الأصول الثلاثة: التوحيد والرسالة والبعث.

فمن آيات التوحيد قول الرجل المؤمن: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ومنها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً

لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ومن آيات النبوة قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٣] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [١١]، ومنها قوله سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ومن آيات البعث قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ...﴾ الآية [١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا...﴾ [٣٣]، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٨] إلى قوله: ﴿...وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٦٥]، وفيها ذكر الصيحتين، وحال أهل الجنة، وحال أهل النار، ومنها: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [٧٧] إلى آخر السورة، وفيها ذكر أدلة إمكان البعث وقُدرة الله عليه، والردُّ على منكريه ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٨٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ القَسَم من الله بالقرآن على رسالة محمد ﷺ، وأنه على صراط مستقيم، وأن هذا القرآن تنزيلُ العزيز الرحيم، وأن الغايةَ من إرسال النبي ﷺ وإنزالِ القرآن عليه إنذارُ قومه الذين لم يُنْذَر آباؤهم، لذلك فهم غافلون، وأنهم قد حقَّ عليهم القولُ بالشَّقاء والضّلال؛ لذلك فهم لا يؤمنون، مهما أُنذروا.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾ هذان حرفان من الحروف المقطَّعة التي ابتُدئت بها كثير من السور المكية وبعض السور المدنية، ومِن أحسن ما قيل فيها: إنها إشارة إلى إعجاز القرآن العظيم؛ أي: إن هذا القرآن الذي أعجزكم ـ أيها العرب ـ مؤلَّف من جنس هذه الحروف، ومع ذلك لا تستطيعون أن تأتوا بمثله؛ لأنه كلام الله، ولو كان من عند غير الله لما عجَزتم عن الإتيان بمثله، وفي هذا إفحام للمشركين وإقامة للحجة عليهم، ويؤيد هذا القول: أن هذه الحروف المقطَّعة كثيرًا ما يُذكر بعدها القرآن، وأنه منزَّل من عند الله، وأنه عربيٌّ، كما في سورة البقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قَسَم من الله بالقرآن الحكيم؛ أي: أُقسم بالقرآن الذي أحكمت آياته، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكتاب الذي كَمُل في فصاحته وبلاغته فلا يتطرق إليه خلل في نظمه، وكَمُل في معانيه فلا يعتريه تناقض أو باطل، وكَمُل في أخباره فلا يدخله تكذيب، وكَمُل في شرائعه وأحكامه فليس فيه آصار ولا أغلال، فهو كامل مُحكَم من كل وجه، قد بلغ أعلى درجات الإحكام.

وإقسام الله بالقرآن من بين سائر كتبه دليل على شرف قدره، وعلو شأنه عنده تعالى، ولا ريب؛ فهو كلامه ﷻ، فهو أشرف كلام في الوجود وأحسنه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

والقَسَم من مؤكِّدات الكلام، ولما كان العربُ ينكرون أن يكون القرآن كلام الله، ويكذِّبون بالرسالة، جيء بالقَسَم بيانًا لشرف المقسَم به، وتأكيدًا للمقسَم عليه الذي هو جواب القَسَم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الرسول، وهو محمد ﷺ ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: إنك لمن الرسل الذين اخترناهم لتبليغ الرسالة وهداية الناس، فلست بِدْعًا من الرسل ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾؛ أي: إنك لمن المرسلين، وعلى دين قويم لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام، وهذه الجملة تأكيد لما قبلها؛ لأن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم.

قوله سبحانه: ﴿تَنزِيلَ﴾؛ أي: القرآن، فهو مُنَزَّل من عند الله، ونصب ﴿تَنزِيلَ﴾ على المصدر أو على الحال؛ أي: نُزِّل تنزيلًا، أو حال كونه تنزيلَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: القوي الذي لا يغالبه أحد ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؛ أي: الواسع الرحمة.

وذِكْر ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في سياق إنزال القرآن يدل على اشتماله على معاني العزة والرحمة، فهذا الكتاب يَغلب ولا يُغلب؛ إذْ بذَّت بلاغتُه كل مِنطيق، وعلا على كل منظوم ومنثور، وذِكْر ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ يدل على أن إنزال القرآن من مُقتضيات رحمته تعالى بعباده؛ ليخرجهم به من الظلمات إلى النور، وقد وصف اللهُ القرآنَ في آيات عديدة بأنه هدى ورحمة للمؤمنين كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلق بـ ﴿تَنزِيلَ﴾؛ أي: أنزلنا إليك القرآن لتحذِّر به قومًا من عقاب الله، وهم قريش وسائر العرب ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾؛ أي: لم يُنذَر آباؤهم؛ فهم في زمن فترة من الرسل، فلم يأتهم نذير، ولا أُنزل عليهم كتاب، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: فهم بسبب انقطاع الرسل غافلون عن الإيمان وعن التوحيد وعبادة الله، ولا يَرِد على هذا رسالةُ إسماعيل عليه السلام إلى جُرهم وذريته من العرب؛ لأن قريشًا ومَن حولهم من العرب لم يُدركوا إسماعيل.

وذِكْر الإنذار دون التبشير؛ لأن الواقع من حال الناس يقتضي الإنذار، وهو الشرك الموجب للعذاب، كما تدل له آية الإرسال، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢]، وكان كلُّ نبي يفتتح دعوتَه بالإنذار، قال نوح وهو أول الرسل: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥].

ثم بيَّن تعالى استحقاقَهم للعذاب؛ فقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ﴾ اللام هي الموطِّئة للقَسَم؛ أي: والله لقد ثبت وتحقَّق ﴿ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾؛ أي:

قول الله، وهو قضاؤه وحكمُه تعالى بأنهم معذَّبون في النار؛ لإصرارهم على الكفر وتكذيب الرسول، وسبق علمُه تعالى أنهم يموتون على الكفر، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ﴾؛ أي: أكثرهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يصدِّقون بما جئتَ بها ـ أيها الرسول ـ وإذا مات الكافرُ على كفره فالنار مصيره، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦]، ويدل قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ على أنَّ منهم مَن آمن، وهم الأقل، فنجوا من العذاب.

الأحكام والفوائد:

١ ـ أن هذه السورة مكية، ويظهر ذلك من وجوه:

الأول: افتتاحها بحرفين من الحروف المقطَّعة.

الثاني: اشتمالها على تقرير أصول الاعتقاد الثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث.

الثالث: اشتمالها على قصة أصحاب القرية والرسل الثلاثة.

٢ ـ الإشارة إلى إعجاز القرآن في قوله: ﴿يسٓ﴾، ووجه ذلك: أن هذا القرآن العربي مؤلَّف مما يتألَّف منه سائرُ كلام العرب، ومع ذلك تحدَّاهم أن يأتوا بسورة مثله، فلم يفعلوا ولن يفعلوا.

٣ ـ تعظيم شأن القرآن بإقسام الله به، وقد أقسم اللهُ بالقرآن في خمسة مواضع: في هذه السورة، وفي سورة ص، والزخرف، والدخان، وق.

٤ ـ الثناء على القرآن بأنه حكيم بكل ما تحتمله الكلمةُ من المعاني؛ حُكمًا وإحكامًا وحِكمة.

٥ ـ الإقسام على صدق الرسول بالقرآن الذي جاء به، وصدقُ

كلٌّ منهما يستلزم صدقَ الآخر، فالقرآن حق، والرسول حق.

٦ ـ أن محمدًا رسولٌ من رُسُل الله عليهم الصلاة والسلام.

٧ ـ الدلالة على أن رسالة محمد ﷺ ليست بِدْعًا؛ بل هو مسبوق برسل ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٨ ـ أن الشريعة التي جاء بها النبيُّ ﷺ هي الصراط المستقيم.

٩ ـ أن النبي محمدًا ﷺ في كل أمره على صراط مستقيم؛ في أخباره وفي أوامره ونواهيه، وفي هديه وفي عبادته، وفي معاملته لكل أحد من الناس، عمومًا وخصوصًا، ومع كل طوائف الناس.

١٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

١١ ـ أن القرآن منزَّل من عند الله تعالى.

١٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: العزيز والرحيم، وما دلَّا عليه من صِفَتي العزة والرحمة.

١٣ ـ أن إرسال الرسول ﷺ وإنزال القرآن من آثار رحمته تعالى بعباده، ويشهد لذلك قولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

١٤ ـ أن من الحكمة في إنزال القرآن: إنذار النبي ﷺ قومه.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

١٦ ـ أن الحجة على العباد تكون بإرسال الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

١٧ ـ أن قومه ﷺ لم يأتهم نذير قبله عليه الصلاة والسلام، وهو معنى ﴿مَآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾.

١٨ ـ أن عدم مجيء النذر سببٌ للغفلة التي منشؤها الجهل.

١٩ ـ ذم الإعراض عن طلب الحق؛ لقوله: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

٢٠ ـ أن الرسول ﷺ مرسَل إلى قومه؛ لقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾، وقد دلت أدلة من الكتاب والسُّنَّة على أنه مرسَل إلى جميع الناس، وأجمع على ذلك المسلمون.

٢١ ـ الحكمة والتعليل في أفعال الله؛ لقوله: ﴿لِّتُنذِرَ﴾.

٢٢ ـ أن أكثر الذين أنذرهم النبيُّ ﷺ مِن قومه قد حقَّت عليهم كلمةُ العذاب؛ لردِّهم دعوتَه أول مرة؛ لذلك فهم لا يؤمنون؛ عقوبة لهم.

٢٣ ـ أن من حقَّت عليه كلمةُ العذاب فإنه لا يؤمن، ولهذا ادَّعى بعضُهم أن الأمر بإنذارهم ودعوتهم إلى الإيمان مع الإخبار بأنهم لا يؤمنون، يتضمَّن التكليفَ بما لا يطاق، وأجاب ابنُ عرفة رحمه الله بأن الممتنع هو التكليف بما لا يُطاق عقلًا وعادة، وأما التكليف بما لا يطاق شرعًا فإنه جائز الوقوع[1]، ويؤيده: جواز الدعاء بعدم التكليف به: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وأجاب غيرُه بأنَّ مَن أخبر الله بأنه لا يؤمن فإنه لا يؤمر بالإيمان، ولا يؤمَر بإنذاره؛ لأنه صار كمن كُشف له الغِطاء، وعاين الغيبَ الذي هو متعلَّق الإيمان، كحال العبد الذي وصل إلى حال الغرغرة، والله أعلم، ولهذا قال تعالى في هؤلاء: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس: ١٠].

---

(١) «تفسير ابن عرفة» (٤/٧٨٦ ـ ط. دار ابن حزم).

٢٤ ـ تأكيد الخبر بالقَسَم للدلالة على أهميَّته؛ لقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾.

٢٥ ـ إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾.

٢٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣].

٢٧ ـ أن قليلًا من قريش الذين كانوا بمكة آمنوا؛ إذْ لم يحِق القولُ عليهم، لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾.

٢٨ ـ الرد على القدرية في نفيهم أن يكون كفرُ المشركين بمشيئة الله وتقديره.

٢٩ ـ أن مِن إعجاز القرآن: مطابقة الواقع لأنبائه؛ إذْ أخبر أن أكثر هؤلاء لا يؤمنون، فلم يؤمنوا.

٣٠ ـ وجوب اللجوء إلى الله لطلب الثبات على الإيمان، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

ثم أخبر تعالى عمَّا عُوقبوا به من الصوارف عن الإيمان؛ **فقال سبحانه:**

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآياتُ الإخبارَ بأن الله جعل في أعناق المكذبين أغلالًا أشدَّ ما تكون في المنع، وهو من تشبيه المانع المعنوي، وهو ما ابتلاهم به من الصوارف عن الإيمان، بالمانع الحسِّيِّ من السَّدِّ والأغلال، لذلك كان إنذارُهم وعدمُه عندهم سواء، وأن المنتفع بالإنذار هم من اتَّبع الذكر وخشي الرحمٰن، وأنهم المبشَّرون بالمغفرة والأجر الكريم، ثم أخبر تعالى أنه الذي يحيي الموتى، ويكتب أعمال العباد، ويُحصيها في كتاب مبين.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ جمع غُلٍّ - بضم الغين - وهي أطواق من حديد، تُطوَّق بها الأعناق، ﴿فَهِيَ﴾؛ أي: الأغلال ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ يعني: أنها أغلال غليظة بلغت أذقانهم، جمع ذقَن، وهو مجمع اللَّحيين من أسفل، فمنعت الأغلالُ رؤوسَهم من الانخفاض والالتفات ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ جمع مُقمَح، من الإقماح، وهو رفع الرأس مع غض البصر.

قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: أمامهم ﴿سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: حجابًا عظيما ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: جعلنا على أبصارهم غشاوة ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: فهم لذلك لا يُبصرون الهدى، ولا يهتدون إلى الحق.

والكلام في الآيتين على التمثيل؛ شُبِّهت حالُهم في عدم وصول الإيمان إليهم بحال مَن غُلَّت أعناقُهم، وأحاطت بهم السُّدود من كل جهة فلا نجاة لهم، جزاءً وفاقًا من الله، فهم لما تكبَّروا عن الإيمان وأصرُّوا على الكفر أُغلقت عليهم مَنافذُ الهداية، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكلُّ مَن شابه هؤلاء في فعلهم فهو حريٌّ بأن يُعاقَب مثل عقوبتهم.

ولما بلغوا هذه الحالَ من عدم الاهتداء قال تعالى تيئيسًا من إيمانهم: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾؛ أي: وسِيانِ عند هؤلاء إنذارُك ـ أيها الرسول ـ وعدمُه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فهم لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون رسوله ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾؛ أي: إنما ينتفع بإنذارك ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن، فهو الذكر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، المعنى: إنما تنذر مَن آمن بالقرآن وعمل بما فيه: تصديقًا لأخباره، وفعلًا لأوامره، وانتهاءً عن مناهيه ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: خاف ربَّه في السِّرِّ كما يخافه في العلانية، والخشية أخصُّ من الخوف؛ فهي خوف مع تعظيم للمَخُوف منه، وفي ذكر الخشية مع تعقيبها بذكر اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الدال على سعة الرحمة ثلاث فوائد:

الأولى: الثناء البالغ على الخاشي، فهو يخشى الله مع علمه أنه واسع الرحمة.

الثانية: أن قهره تعالى مقرون بلُطفه، يعني: مع كونه ذا هيبة لا تقطعوا رجاءكم.

الثالثة: الإرشاد إلى الجمع بين الخوف والرجاء.

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾؛ أي: فبشِّر هؤلاء المهتدين بمحو من الله لذنوبهم، وتجاوُز عنها ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: وبشِّرهم بثواب عظيم، وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والنظر إلى وجه الله الكريم، وفي الجمع في البشارة بين المغفرة والأجر الكريم ما يُناسب ما قبله من الخوف والرجاء؛ فبالمغفرة يأمنون مما يخافون، وبالأجر الكريم يتحقق ما يرجون.

ولما ذكر خشيتَه تعالى ذكر ما يبعث عليها؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: نبعثهم بعد موتهم من قبورهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾؛ أي: نكتب في الدنيا ما قدَّموا من أعمال لنجازيهم بها، والذي يكتب هم الملائكة، كما قال سبحانه: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وأضاف اللهُ الكتابةَ إلى نفسه؛ لأنه الآمر بها ﴿وَآثَارَهُمْ﴾؛ أي: ونكتب ما تركوا بعد موتهم من أعمال صالحة، كالعلوم النافعة وبناء المساجد، أو سيئة، كالعلوم الرديئة والوصايا الظالمة، وفسَّر بعضُ السلف ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ بخُطاهم إلى المساجد، والآية تشمل المعنَيين: أعمالهم، وآثار أقدامهم إلى المساجد.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾؛ أي: أثبتناه وحفظناه ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: في كتاب بيِّن واضح، مُبيِّن لكل شيء، وهو اللوح المحفوظ، هذا قول الجمهور، وسمِّي اللوحُ المحفوظُ إمامًا؛ لأنه يؤتم بما أحصاه، وفسَّر الإمامُ المبينُ بأنه كتاب الأعمال، ويؤيده ظاهر الآية، وهو قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ

أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، والله أعلم.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر الله نفسه بضمير الجمع الدال على العظمة؛ لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾.

٢ ـ ذكر عقوبة الله للكفرة الرادِّين للدعوة المعاندين بما يمنعهم من الإيمان؛ عقوبةً على إعراضهم وردِّهم للحق بعد ما عرفوه، وهو ثلاثة أمور: الغُلُّ في أعناقهم، والسَّدُّ من بين أيديهم ومن خلفهم، والغشاوة على أبصارهم.

٣ ـ أن الله إذا أراد أن يُضل أحدًا جعل صدرَه ضيِّقًا كالذي في عنقه غُلٌّ.

٤ ـ إثبات الجَعْل الكوني لله ﷻ؛ لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾.

٥ ـ تمثيل المعاني العقليَّة بأمور حسيَّة لتقريب المعاني، فكلُّ ما ذكر من الغُل والسَّدِّ والغشاوة فمن هذا القبيل، وهو من بلاغة القرآن.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٧ ـ أن من حقَّ عليه القولُ فلا طمع في هدايته، فإنذاره وعدمه سواء.

٨ ـ أن من حقَّ عليه القولُ سُدَّت عنه جميعُ طُرق الهداية، سمعًا وعقلًا وبصرًا، قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩].

١٠ ـ الردُّ على القدرية في نفيهم أن يكون كفر المشركين بمشيئة الله وتقديره.

١١ ـ أن النِّذارة إنما تنفع مَن اتَّبع القرآن وخشي الرحمٰن.

١٢ ـ أنَّ مَن هذه حاله لم يكن ممن حقَّ عليه القول؛ إذْ لو كان منهم لما آمن أصلًا، فإنه انتفع بالنِّذارة فآمن، وانتفع بالنِّذارة فاتَّبع الذكر بفعل الصالحات، وخشي الرحمٰن فترك السيئات.

١٣ ـ فضيلة خشية الله بالغيب.

١٤ ـ أن الانتفاع بالنِّذارة والذِّكرى بحسب الإيمان وخشية الرحمٰن.

١٥ ـ أن العبد مهما علت درجتُه في الإيمان، فإنه لا يستغني عن مغفرة الله، ويترتب عليه:

١٦ ـ مشروعية الاستغفار في كل وقت.

١٧ ـ أن الخشية المحمودة هي خشية الله بالغيب.

١٨ ـ أن من أسماء القرآن: الذِّكر.

١٩ ـ أن من اتَّبع الذكر وخشي الرحمٰن بالغيب له البشرى بالمغفرة والأجر الكريم.

٢٠ ـ أن البشارة تكون بزوال المكروه وحصول المحبوب؛ لقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

٢١ ـ أن الهدى والإضلال إلى الله.

٢٢ ـ أن الله هو الذي يحيي الموتى الذين ماتوا بفراق أرواحهم لأبدانهم، كذلك هو الذي يحيي مَن يشاء من موتى الجهل والكفر، يحييهم بالتوفيق والإيمان، وبهذا تظهر مناسبةُ هذه الآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لما قبلها، وعليه:

٢٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

٢٤ ـ قدرة الله على إحياء الموتى، والردُّ على المكذبين.

٢٥ ـ كتابة خُطا الساعين إلى خير أو شر.

٢٦ ـ كتابة ما قدَّم الأمواتُ من أعمال حسنة أو سيئة، صغيرها وكبيرها، وما تسبَّبوا فيه من أعمال تُعمَل بعدهم، وهي آثارهم حسنة أو سيئة، كلُّ ذلك يُكتب لهم أو عليهم.

٢٧ ـ إحصاء الله أعمال العباد وغيرها في اللوح المحفوظ، وهو الإمام المبين في الآية.

٢٨ ـ إثبات البعث والجزاء، والثواب والعقاب؛ لقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾.

ثم أراد اللهُ أن يذكِّرهم بما حلَّ بأمثالهم لعلهم يرجعون؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ ضَرْب المثل له استعمالان:

الأول: تشبيه حالة غريبة بحالة أُخرى مثلِها، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠].

الثاني: ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تشبيهها بنظيرةٍ لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] على أحد التفسيرين؛ أي: بيَّنا لكم أحوالًا بديعة هي في الغرابة كالأمثال.

وعلى الأول يكون المعنى: اجعل أصحاب القرية مثلًا لكفار مكة؛ إذْ شابهوهم في الكفر وتكذيب الرسل، فيُتوقع أن ينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل بأهل القرية، وهذا المعنى أظهر في الآية.

وعلى الثاني يكون المعنى: اذكر لهم قصَّة هي في الغرابة كالمثل السائر.

والقرية المذكورة لم يرد خبر صحيح في تعيينها، ولا يتعلق بذكر اسمها فائدة، وإنما الشأن والفائدة فيما جرى من أهل هذه القرية وما آل إليه أمرُهم، وهو ما ذكره اللهُ في هذه الآيات ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: إذْ جاء إليهم المرسلون لهدايتهم، قال كثير من المفسرين: هم رُسُل عيسى عليه السلام، والصحيح أنهم رُسُل من عند الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾، فأضاف اللهُ الإرسال إلى نفسه، وسيأتي في الفوائد مزيدُ أدلة لبيان أنهم مرسَلون من الله عز وجل.

والفعل ﴿أَرْسَلَ﴾ إذا كان في الوحي تعدَّى بإلى، كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وإذا كان في العذاب تعدَّى بعلى، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣]، وفيما عدا ذلك يأتي متعدِّيًا بنفسه؛ كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾؛ أي: فأسرع أهلُ القرية بالتكذيب ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾؛ أي: فقوَّينا الرسولين برسول ثالث، وهذا من زيادة إقامة الحجة على أصحاب القرية ﴿فَقَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال الرُّسُل الثلاثة لأهل القرية ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾؛ أي: مرسَلون إليكم من الله بالهدى ودين الحق، وصدَّروا كلامهم بتأكيده بـ ﴿إِنَّ﴾ لما سبق من تكذيبهم الاثنين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال أهلُ القرية للرُّسُل ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ البشَر اسم جنس يُطلق على الواحد، كما في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤]، ويُطلق على الجمع كما هنا ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؛ أي: ما أنتم إلا أناس مثلنا، فلا فضل لكم علينا، وهذه شُبهة سائر الأمم المكذبة للرُّسُل، يظنون أنَّ الرسول لا يكون من الآدميين بل

من الملائكة، وهذا لجهلهم؛ فإنه لو كان الرسول من الملائكة لما استطاعوا مخاطبته؛ لأنهم نورانيون ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: لم ينزل اللهُ عليكم شيئًا من الوحي ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾؛ أي: ما أنتم إلا كاذبون في ادِّعاء الرسالة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال الرُّسُلُ مجيبين لهم ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ هذا الأسلوب يجري مجرى القَسَم بدليل كسر همزة ﴿إِنَّ﴾ بعده؛ لأنها لا تُكسر بعد العِلم إلا إذا أريد به القَسَم، ودخل في خبرها اللَّام ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: اللهُ الذي أرسلنا إليكم يعلم أننا رُسُله إليكم، ولو كنَّا كاذبين لانتقم منَّا أشدَّ الانتقام، وأكَّد الرُّسُلُ كلامَهم بمؤكِّدَين: ﴿إِنَّ﴾ والقَسَم ـ وهو أقوى المؤكِّدات ـ لأن أصحاب القرية أنكروا رسالتهم، وبالغوا في ذلك حتى نسبوهم إلى الكذب ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ البلاغ اسم مصدر بمعنى: التبليغ؛ كالسَّلام بمعنى: التسليم، و﴿ٱلْمُبِينُ﴾ هو البَيِّن الواضح؛ أي: ليس علينا إلا التبليغ الواضح المؤيَّد بالآيات.

قوله سبحانه: ﴿قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: قال أصحابُ القرية للرُّسُل بعد أن أُفحموا وأعيَتْهم الحيلة: إنَّا تشاءمنا بكم، وأصل التطيُّر التفاؤل بالطَّير؛ فإنهم كانوا يزجرون الطَّير ويتفاءلون أو يتشاءمون باتجاهاتها، ثم استُعمل في كل ما يُتشاءم به، ولعل أصحاب القرية حصل لهم مكروه أوجب لهم التشاؤم بالرُّسُل، قال بعض المفسرين: إنهم أصيبوا بجدب بعد مجيء الرُّسُل، ويشهد لهذا قولُه تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقوله تعالى عن كفار مكة: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

ثم لجأ أهلُ القرية إلى التهديد؛ فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لئن لم تَكُفُّوا عن دعوتكم لنرمينَّكم بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وليصيبنَّكم منَّا عذاب شديد الألم، وهذا من عطف العام على الخاص ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قالت لهم الرُّسُل ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾؛ أي: شؤمكم معكم وهو الكفر، وليس التذكير؛ لأن التذكير سبب لصلاح الدنيا والآخرة ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ بهمزتين، الأولى: همزة الاستفهام، والثانية: همزة ﴿إِنْ﴾ الشرطية، وجواب الشرط محذوف؛ أي: هل إن ذُكِّرتم بما فيه سعادتكم تتطيرون وتهددوننا بالعذاب؟! والاستفهام للتوبيخ والتعجُّب من حالهم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب انتقالي؛ أي: انتقال من كلام إلى آخر، وهو هنا يُفيد التَّرَقِّي في الذم وتقبيح شأن القوم؛ أي: بل أنتم قوم متجاوزون الحدَّ في الكفر والطغيان.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أساليب القرآن ضرب الأمثال.

٢ ـ أمْر الله نبيَّه ﷺ أن يمثل قومه الذين كذبوه بأصحاب القرية في تكذيبهم وشُبهتهم.

٣ ـ أن الله قد يرسل إلى بعض الأمم رسولين أو ثلاثة.

٤ ـ أن هؤلاء الرُّسُل رسلٌ من الله تعالى لا من المسيح، خلافًا لمن زعم هذا، وذلك من أربعة أوجه:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، فإنه من المعلوم أنه إذا أطلق الرسول والرُّسُل فالمراد أنهم الذين أرسلهم الله.

الثاني: قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ فأضاف اللهُ إرسالهم إليه بصيغة الجمع مرتين؛ في قوله: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ وقوله: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾.

الثالث: قوله عن الرُّسُل: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، فقال لهم أصحاب القرية: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ فعُلم أن الرُّسُل قالوا: أرسلنا الله.

الرابع: قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وهذا أسلوب الرُّسُل، فعُلم أنهم رُسُل من عند الله.

٥ ـ اعتبار كثرة الأدلة في قوة الحجة.

٦ ـ تشابه الناس المرسَل إليهم في التكذيب وشُبهة التكذيب.

٧ ـ أن بشرية الرُّسُل أعظم شُبهة يتعلق بها المكذبون.

٨ ـ أنَّ مِن سَفَه الكُفَّار: استِنْكارَهم أن يكون الرَّسول بشرًا مع أنَّه مُقتضى الحكمة.

٩ ـ أن الصادق يجوز له أن يقول: (الله يعلم أن الأمر كما ذكرت)، ومَن ليس بصادق يكون مفتريًا على الله إذا قال ذلك؛ لأنه ينسب إلى علم الله ما هو مخالف للواقع، فيستلزم نسبة الجهل إلى الله.

١٠ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾.

١١ ـ أن غاية ما كُلِّف به الرُّسُل البلاغ.

١٢ ـ أنه ليس على الرُّسُل هداية أقوامهم، ولا يستطيعون ذلك.

١٣ ـ أن التطيُّر بالصالحين من عادة أعداء الرُّسُل.

١٤ ـ تحريم التطيُّر.

١٥ ـ أنَّ نهيَ الرُّسُل عن تبليغ رسالاتهم وتهديدَهم عادةٌ مطَّردة في الأمم، كأنهم قد تواصوا بها.

١٦ ـ أن الشَّرَّ الذي ينزل بالمكذبين هو بسبب كفرهم وتكذيبهم، وهو معنى قول الرسل: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

١٧ ـ إبطال دعواهم على الرُّسُل أنهم سبب الشر الذي حلَّ بهم.

١٨ ـ سَفَه الكفار وضلالهم بقلب الحقائق؛ إذْ جعلوا الصلاح فسادًا، والمصلحين مفسدين، وسببَ الخير سببًا للشر.

١٩ ـ أن سبب هذا التطيُّر والعناد هو الإسراف، وهو الإفراط في العناد.

ثم ذكر اللهُ ما أيَّد به هؤلاء الرُّسُل حيث انبعث لهم الرجلُ المؤمنُ مُدافعًا عنهم، وداعيًا بدعوتهم؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن الرجل المؤمن، وأنه دعا قومَه إلى اتِّباع الرُّسُل، وأعلن التوحيد وإنكار الشرك، وبُطلان آلهة المشركين، وأن التَّمادي في ذلك ضلال مبين، وأعلن إيمانه بالرُّسُل ومَن أرسلهم، فآل أمرُه إلى كرامة الله، فتمنَّى أن لو علم قومُه بحُسن عاقبته لعلهم يؤمنون.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: من أبعد مكان في المدينة، وهذا يدل على أن دعوة الرُّسُل بلغت أطرافَ البلد، والتعبير هنا بالمدينة، وفي الأول بالقرية من باب التفنُّن وتنويع العبارة، ومثله ما وقع في الكهف، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧]، ثم جاء قولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢]، ﴿رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يُسرع في مشيه لنصرة الرُّسُل، وحرصًا على هداية

قومه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه إظهارًا للشفقة، واستعطافًا بذكر أنه منهم ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: اتَّبعوا المرسلين من الله فيما دعوكم إليه، وهذا يدل على إيمانه بهم ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ تأكيد لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهذا التأكيد متضمِّن لذكر ما يدعو إلى الاستجابة والطاعة؛ أي: اتَّبعوا مَن لا يطلبون منكم مكافأة على تبليغ الإيمان، فلن تخسروا شيئًا من دنياكم ﴿وَهُم﴾؛ أي: الرُّسُل ﴿مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: ثابتون على الهداية والصلاح، فاهتدوا مثلهم.

ثم تلطَّف في إرشادهم؛ فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الاستفهام للإنكار؛ أي: وأيُّ شيء يمنعني أن أعبد الذي خلقني؟! وقَرَن بين الحكم والدليل في قوله: ﴿فَطَرَنِى﴾ لأنه إذا كان الله هو الخالق فتجب ـ إذن ـ عبادته، وظاهر السياق أن يقول: وما لكم لا تعبدون الذين فطركم؟ لكنه عَدَل عن ذلك فأسند الفعل إلى نفسه ﴿فَطَرَنِى﴾ إشارة إلى أنه لم يأمرهم إلا بما فَعَله هو في خاصة نفسه، وفيه استدراج لهم، فكأنه يقول: إذا لم يوجد مانع يمنعني من الإيمان، فلا يوجد لديكم مانع أيضًا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: وإلى الله ـ وحده ـ ترجعون، فتصيرون إليه فيجازيكم بأعمالكم، وذلك بالموت ثم البعث، وفيه ترغيب وترهيب.

ثم وبَّخ قومه بطريق التعريض؛ فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؛ أي: أأعبد مِن دونه آلهة باطلة؟! المعنى: لا أتخذ، وما كان لي أن أتخذ من دون الله آلهة، فذلك ممتنع، والاستفهام للإنكار، ويتضمَّن توبيخًا لعُبَّاد الأصنام، ثم بيَّن السبب في نفيه بقوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: إن أرادني اللهُ بسوء ﴿لَّا تُغْنِ﴾ هذا جواب الشرط، وهو مجزوم بحذف الياء ﴿عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا تنفعني شفاعتهم

عند الله شيئًا، على فرض أنهم سيشفعون؛ فليس لهم عند الله منزلة، والشفاعة هي: التوسط للغير بإزالة الضرر وجلب الخير ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾؛ أي: ولا يقدرون على إنقاذي من عذاب الله، وهو من عطف الخاص على العام، وذكر اسم الرحمٰن هنا؛ لِما فيه من الرد على الجاحدين بهذا الاسم من المشركين، والسورة مكية، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، ﴿إِنِّيٓ إِذًا﴾؛ أي: إذا اتخذتُ آلهة من دون الله ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ضلال بيِّن واضح؛ إذْ تركتُ عبادة الإلٰه القادر النافع الضار إلى عبادة العاجز الذي لا يسمع ولا يبصر.

ثم جهر الرجلُ بإيمانه غيرَ مُبال بالعواقب؛ فقال لقومه: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أضاف الربَّ إليهم؛ للتنبيه على بُطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام؛ أي: إني صدَّقتُ بربكم الذي خلقكم وتولَّى أمركم ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾؛ أي: فاسمعوا قولي وأطيعوني فيما آمركم به، ولا أبالي بتهديدكم.

فما كان من قومه حينئذٍ إلا أن وَثَبوا عليه وقتلوه، فصار شهيدًا، ولهذا قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ أي: بعد قتله بُشِّر إمَّا من الله ﷻ أو من الملائكة بأن قيل له: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهذا أمر إكرام جزاءَ إيمانه بربه وتصديقه بالرسل، فدخل الجنة ونال فيها من النعيم ما شاء الله؛ بدليل قوله: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يا ليت قومي يعلمون بعد قتلهم لي ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾؛ أي: بغُفران ربي لي ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إشارة إلى الزيادة في المنازل والدرجات في الجنة؛ وإلا فكلُّ مَن دخل الجنة فهو مُكرم منعَّم، كما قال سبحانه بعد ذكر صفات المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

فهذا الرجل المؤمن لم يشمت بقومه بعد دخول الجنة، ولا تَشَهَّى

هلاكهم؛ بل تمنَّى أن يعلم قومُه أنه على الحق؛ ليؤمنوا كما آمن، فيدخلوا الجنة كما دخلها، فصار ناصحًا لقومه في حياته وبعد مماته، رحمه اللهُ ورضي عنه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يُخرِج من الأمة الكافرة فردًا يصطفيه فيهديه للإيمان، كما أخرج من قوم فرعون الرجل الذي يكتم إيمانه، وأخرج من هذه القرية هذا الرجل.

٢ ـ الشَّبَه بين هذا الرجل ومؤمن آل فرعون في تفرُّده، وبُعْد مسكنه، ونُصحه لقومه، ومكرهم به.

٣ ـ أن من كمال النصح المضيَّ إلى المقصود بعزم وهمَّة، وقد يكون من آثاره الإسراع في السير، وذلك لقوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾.

٤ ـ أن هذه المدينة كانت كبيرة متباعدة الأطراف.

٥ ـ تودُّد الناصح لمن ينصح له؛ لقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

٦ ـ أن أعظم النصح الأمرُ باتباع رُسُل الله.

٧ ـ أن من أعظم الأسباب المعينة على اتباع الرُّسُل أنهم لا يسألون الناس أجرًا، وأنهم مهتدون في أقوالهم وأفعالهم.

٨ ـ أن من أعظم الصوارف عن الاستجابة لدعوة الرُّسُل طلبَ المال من المدعوين، وسوء الأعمال والأخلاق، ولا كذلك الرسل عليهم السلام، فلا يسألون الناس أجرًا، وهم أهدى الناس في أقوالهم وأفعالهم.

٩ ـ أن أصحاب القرية كانوا عبَّاد أصنام؛ لقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إلى قوله: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

١٠ ـ ثناء الله على هذا الرجل، وذلك بأمور، منها:

١ ـ دعوته لقومه ونصحه لهم.

٢ ـ إقراره وإعلانه بتوحيد الربوبية والعبادة.

٣ ـ إنكاره على قومه الشرك.

٤ ـ ذكره الدليل العقلي على بُطلان آلهة قومه؛ لقوله: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

٥ ـ نفيه الشرك عن نفسه، وحكمه على نفسه بالضلال المبين لو أشرك.

٦ ـ إعلانه الإيمان بالرُّسُل، وجهره بذلك.

٧ ـ ذكر مصيره وما قيل له عند موته.

٨ ـ حرصه على هداية قومه حتى بعد موته؛ لتمنِّيه علم قومه بمصيره، مع ما ناله من أذاهم.

١١ ـ إثبات الربوبية العامة.

١٢ ـ نصح الأنبياء والمؤمنين للخلق، حتى لأعدائهم.

١٣ ـ حُسْن عاقبة من آمن بالله ورُسُله بالمغفرة والكرامة.

١٤ ـ إثبات الجَعْل الكوني؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

١٥ ـ أن الشهيد في الأمم الماضية يُبشَّر بالجنة، كما هو في هذه الأمة.

١٦ ـ أن الجنة مخلوقة.

ثم عاد الحديثُ عن أصحاب القرية بعد انقطاعه بذكر خبر الرجل الصالح؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

هذه الآيات من تمام قصة الرجل المؤمن صاحب يس، وقد تضمَّنت الإخبارَ بأن الله ما أنزل على قومه ـ أصحاب القرية ـ جُندًا من السماء لإهلاكهم، وما كان الله ليفعل ذلك، وإنما أهلكهم بصيحة واحدة صيَّرتْهم خامدين، ثم أخبر تعالى أن استهزاء العباد بالرُّسُل سبب لحسرة المستهزئين والتحسُّر عليهم، ووبَّخ تعالى المشركين على عدم اعتبارهم بالقرون الهالكين، وأن كلًّا من الأمم سيُحضرون يوم البعث للحساب والجزاء، حكمٌ من الله لا تبديل له، وهذا من كمال عدله تعالى بين عباده.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: وما أنزلنا على قوم هذا الرجل الصالح من بعد موته جُندًا من السماء ملائكةً لإهلاكهم، كما يحتاج الملوكُ من البشر للإيقاع بأعدائهم، فأصحاب القرية أضعف من ذلك ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ تأكيد لِما سبق؛ أي: وما يصحُّ في حكمتنا أن نفعل ذلك مع هؤلاء، وفي الكلام دلالة على

فضل نبيّنا محمد ﷺ؛ لأن الله أيَّده بجنود من الملائكة في غزوة بدر وفي الخندق ويوم حنين، قال تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وقال: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، وقال: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

ولا يَرِد على هذا إرسال الملائكة ـ ضيفِ إبراهيم ـ لإهلاك قوم لوط؛ لأنهم لم يُرسَلوا ليباشروا قتل قوم لوط؛ بل ليُرسِلوا عليهم ما وكَّلهم اللهُ به من الحاصب.

ثم بيَّن تعالى ما أهلك به أصحابَ القرية؛ فقال سبحانه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: ما كانت العقوبة التي أهلكناهم بها إلا صيحةً واحدةً من السماء، وهي صوت عظيم مُهلِك، وتنكير ﴿صَيْحَةً﴾ يدل على عِظمها، ووصفها بواحدة تأكيد لإفادة الوَحدة؛ أي: واحدة لا أكثر من ذلك ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾؛ أي: موتى لا حراك بهم؛ كالنار الخامدة، و﴿إِذَآ﴾ هي الفجائية التي تدل على سرعة حصول ما بعدها، وهو سرعة هلاكهم، وظاهر الآيات أنه لم يؤمن من أهل هذه القرية إلا ذلك الرجل الصالح.

ويذكر كثير من المفسرين أن اسمه حبيب النجار، وربما كان هذا مُتلقًّى من أهل الكتاب، ومثل هذا لا يُنفَى ولا يُثبت، ولا يترتب على ذكر اسم الرجل فائدة، وإنما العبرة بما قصَّه اللهُ من خبره، وما آل إليه أمرُه، ومثل هذا يُقال في عدم تسمية القرية والرُّسُل الكرام، وهو أسلوب معروف في قصص القرآن فيما أُبهم من الأعيان، وهو من بلاغة الكتاب العزيز.

قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ الحسرة هي: شدة الندم، والعباد جمع عَبد، والمراد بهم هنا: الكفار، ويدخل فيهم أصحابُ القرية دخولًا أوَّليًا. المعنى: إنَّ هؤلاء أحقَّاء بأن يُتحسَّر عليهم حسرة شديدة، وليس هذا تحسُّرًا من الله على المكذبين، فإن التحسُّر حزن وندم، ولا يليق ذلك بالله، ولكن يُقال: إنَّ الآية خبر عن سوء حال المكذبين مما يقتضي أن يتحسَّرَ عليهم مَنْ يعطف عليهم، وأن يتحسَّروا هم على أنفسهم، وعلى هذا فلفظ الآية إنشاءٌ ومعناها الخبر.

قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ أي: يسخرون منه ويكذبونه، وهذا سبب الحسرة عليهم، فهم لم ينتفعوا بالرسل، وهلكوا بتكذيبهم.

ولما ذكر تعالى ما حلَّ بأولئك من العذاب وبَّخ كفار مكة على عدم اعتبارهم؛ فقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾؛ أي: ألم يعلموا مآل تلك الأمم الخالية التي كذبت رُسُلها فأهلكناها، فالرؤية علمية؛ والاستفهام للتقرير؛ أي: قد علموا ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾؛ أي: لا يرجعون بعد هلاكهم، فلِمَ لا يعتبرون؟! ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾؛ أي: مجموعٌ ﴿لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾؛ أي: ما كلُّ الخلائق ومنهم الأمم الهالكة إلا مجموعون لدينا للحساب والجزاء، و﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ، و﴿جَمِيعٌ﴾ خبره، وإنما جمع بينهما لأن ﴿كُلٌّ﴾ تفيد معنى الإحاطة، و﴿جَمِيعٌ﴾ تفيد معنى الاجتماع. أي: يأتون مجتمعين، لا يفلت منهم أحد، و﴿مُحۡضَرُونَ﴾ خبر ثان.

الفوائد الأحكام:

١ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على العظمة؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾.

٢ ـ أن الله أهلك قوم الرجل ـ أصحاب القرية ـ جميعًا بصيحة واحدة، فخمدوا.

٣ ـ أن الله لم ينزل لإهلاكهم جنودًا من السماء، وما كان ليفعل ذلك؛ بل أهلكهم بصيحة واحدة صاروا بها خامدين.

٤ ـ أن الله قد يُنزل جندًا من السماء لإهلاك من شاء.

٥ ـ يُسْر أمر إهلاك الكافرين على الله.

٦ ـ ضعف هؤلاء المكذبين في جانب قدرة الله.

٧ ـ انقياد كل شيء لمشيئته تعالى وقدرته.

٨ ـ عِظم مصيبة المستهزئين بالرُّسُل، مما يقتضي من المشفقين عليهم التحسُّر عليهم، وليس قوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ تحسُّرًا من الله، كما قاله بعضُهم.

٩ ـ أن مِن عدل الله ألَّا يعاقب أحدًا إلا بذنب.

١٠ ـ إثبات العبودية العامة.

١١ ـ كثرة الأمم المكذبة للرُّسُل.

١٢ ـ أن الاستهزاء بالرُّسُل كفرٌ، وهو سُنَّة المهلَكين.

١٣ ـ توبيخ المشركين على عدم الاعتبار بما عِلموا من إهلاك القرون الخالية قبلهم.

١٤ ـ علم كفار قريش بهلاك القرون الخالية قبلهم.

١٥ ـ إثبات القياس؛ لقوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ المعنى: أن سُنَّة الله بإهلاك المكذبين ماضية فيهم، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

١٦ ـ تقرير المشركين بعلمهم بهلاك مَن قبلهم؛ توبيخًا لهم وتهديدًا؛ لقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾.

١٧ ـ أن جميع هذه القرون المهلَكة سيجمعهم الله، ويُحضرهم يوم القيامة للحساب والجزاء.

١٨ ـ أن مَن أهلكه اللهُ من المكذبين لا يُرجَى رجوعُهم، وكذا كلُّ مَن مات فإنه لا تُرجَى حياتُه قبل يوم القيامة.

١٩ ـ الرد على مَن قال بالرجعة.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى في السورة: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٣، ٥٤].

٢١ ـ إثبات عندية المكان؛ لقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

٢٢ ـ إثبات قدرة الله على جمع الأولين والآخرين يوم القيامة.

٢٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

٢٤ ـ وجوب الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح.

٢٥ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على العظمة في قوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ و﴿مُنزِلِينَ﴾ و﴿لَدَيْنَا﴾.

ولما ذكر تعالى أنهم مُحضَرون لديه يوم القيامة جميعًا للجزاء، وذلك مستلزم للبعث الذي أنكره الكافرون، ذكر ما يدل على إمكان البعث وإحياء الأجساد الميتة؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمنَّت الآياتُ الإخبارَ بأن مِن دلائل قدرته تعالى على البعث إحياءَ الأرض الميتة الهامدة بسبب القحط؛ فإنه تعالى ينزل عليها الغيث فيُحييها، ومن آثار إحيائها إنبات الزروع بالحبوب، وإنشاء الجنات فيها، وتفجير العيون في تلك الجنات؛ ليأكل العبادُ من ثمار تلك الجنات، ثم أنكر تعالى على الذين لا يشكرون نعم الله، ثم نزَّه تعالى نفسه عن النقائص والعيوب، وذكَّر بقدرته على خلق الأزواج من النبات والحيوانات مما يُعلم وما لا يُعلم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ أي: وعلامة لهم واضحة على قدرتنا على البعث الأرض اليابسة التي لا نبات فيها ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾؛ أي: بإنزال المطر عليها فأنبتت، كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾؛ أي: الحبوب؛ كالبُرِّ، والأرز،

والذرة، والشعير، وسائرِ ما يُدَّخر ويُحْصَد، وتقديم الحبوب؛ لأنها أهم مما سواها، فهي الأصل في قوت الإنسان، ألا ترى إلى الخبز في كونه طعام الناس كافة؟ ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾؛ أي: فمِن الحب يأكلون، وبه يتغذَّون في كل وقت، فالذي أحيا الأرضَ بعد موتها قادر على أن يبعث الموتى من القبور ليجزيهم بما كانوا يعملون، وهذا دليل حسيٌّ ساطع، وبرهان قاطع على كمال قدرة الله ووحدانيته.

قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: وأنشأنا في الأرض بساتين ناضرة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾؛ أي: من أنواع النخل والعنب، وخصَّهما اللهُ بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار، وذكر النخل دون ذكر التمر، لحصول الانتفاع بجميع أجزاء شجرته، ولهذا مثَّل النبيُّ ﷺ المؤمن بالنخلة[1]، ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾؛ أي: وفجَّرنا في الجنات كثيرًا من العيون التي تسقيها؛ فيحسُن منظرُها، ويخرج ثمرُها، ولهذا قال سبحانه:

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ تعليل لجَعْل الجنات وتفجير العيون فيها؛ أي: وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب؛ ليأكلوا من ثمر هذه الجنات، وتذكير الضمير في ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ على التأويل؛ أي: ثمر المذكور من النخيل ومن الأعناب، وادَّعى طائفةٌ من المفسرين المتأخرين أن الضمير في ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ يعود على الله ﷻ؛ لأنه خالقه، وهذا ضعيف؛ لأنه لا نظير له في القرآن؛ بل هو خلاف سياق هذه الآيات ونظائرها، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ١٤١].

---

(١) رواه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿ما﴾ موصولة، وهو معطوف على ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾؛ أي: وليأكلوا ممَّا صنعتْه أيديهم من تلك الثمار؛ كالعصير ودِبس التمر والحلوى وغير ذلك ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ على عدم شُكرهم لربهم، والفاء عاطفة على محذوف يُفهم من السياق؛ أي: هل جَهِل كلَّ هذا كفارُ مكة، أو غفلوا عنه فلا يشكرون المنعِم به؟! فهذا الأسلوب أبلغ من الأمر فيما لو قيل: اشكروا؛ لأنه إنكار على الترك.

ولِما تتضمَّنه هذه الآية من أنواع الدلالات على قدرته تعالى وحكمته ورحمته، وعلى بعث الأموات؛ فإنها تقتضي الحضَّ على تدبر القرآن باستكشاف دلالاته، واستخراج الكنوز من معانيه، فنقول إذن من فوائد الآية: الحضُّ على تدبر القرآن.

ولما دلَّ الكلامُ السابق على أنهم لم يشكروا نعم ربهم وأشركوا به غيره، ناسب أن يُنزه اللهُ نفسَه؛ فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أي: تنزيهًا لله الذي خلق ـ وحده ـ الأصنافَ كلَّها ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾؛ أي: مما تنبِت الأرضُ من الثمار والزروع والحبوب ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: خلَق الأزواج من أنفسهم؛ أي: الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وخلق الأزواج مما لا يعلمونه من سائر المخلوقات في البر والبحر، مما لم يصل إليه علمُهم، وذلك من أعظم دلائل قدرته تعالى وحكمته واتساع ملكه، و﴿مِن﴾ في الآية بيانية في المواضع الثلاثة؛ أي: أن الله جعل الذكور والإناث في جميع المخلوقات، سواء في ذلك النبات، والبشر، وما لا يعلمه الناسُ من المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ ذِكْرُ الدليل بعد الحُكْم، وهو دليل البعث بعد الخبر عنه في قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢].

٢ ـ ذكر الدليل العقلي في الرد على المكذبين بالبعث، وهو قدرته تعالى على إحياء الأرض بعد موتها بالماء النازل عليها.

٣ ـ اشتمال القرآن على الأدلة العقلية.

٤ ـ الاستدلال بالمشاهَد على الغائب.

٥ ـ وصف الأرض بالموت والحياة.

٦ ـ ذكْر الله نفسَه بضمير الجمع الدال على العظمة في قوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾.

٧ ـ امتنان الله على عباده بما أخرج لهم من الأرض من الحبوب والثمار، وبتفجير العيون السارحة بين البساتين.

٨ ـ الحكمة من إخراج الحبوب والثمار، وهو الأكل منها قوتًا وفاكهة.

٩ ـ فضيلة النخيل والأعناب على سائر الأشجار؛ لتخصيصها بالذكر.

١٠ ـ إثبات الجَعْل الكوني؛ لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾.

١١ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾.

١٢ ـ أن نعم الله تستوجب شكر المنعِم بجميع النعم، وهو الله تعالى.

١٣ ـ توبيخ المعرضين عن شكر هذه النعم مع تمتُّعهم بها.

١٤ ـ تسبيح الله نفسَه عن كل نقص وعيب، مُعَلِّمًا عباده أن يسبِّحوه.

١٥ ـ أن خَلْقه تعالى لأنواع المخلوقات من الحيوان والنبات وغيرهما مُقتض للتسبيح.

١٦ ـ أن الله تعالى ـ وحده ـ هو الخالق لجميع المخلوقات.

١٧ ـ أن من حكمته تعالى أنْ جعل المخلوقات أصنافًا.

١٨ ـ أنه ما من مخلوق إلا وهو زوجان.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

٢٠ ـ أن الله جعل الناس أزواجًا، كما جعل النبات أزواجًا.

٢١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٨].

٢٢ ـ قصور علم العباد بما خلق الله.

ولما ذكر تعالى بعضَ آيات ربوبيته في الأرض أتبعه بذكر بعضها في السماء؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآياتُ التذكيرَ ببعض الآيات الكونية؛ **إحداها:** سَلْخ النهار من الليل بغروب الشمس، وما ينشأ عن ذلك من الظلام، **والثانية:** الشمس الجارية الدائبة لتنتهي لمستقرها، وأن ذلك بتقدير العزيز العليم، والآية **الثالثة:** القمر الذي قدَّره اللهُ منازل، وهي ثمان وعشرون منزلة حتى يعود في آخر الشهر كما بدأ في أوله كالعرجون القديم.

وأخبر تعالى أن الشمس لن تُدرك القمر بطلوعها في وقت سلطانه وهو الليل، ولا الليل سابق النهار، وأن كلًّا من هذه المخلوقات تسبح في فلكها.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: وعلامة عظيمة لهم دالة على ربوبيته تعالى وإلٰهيته وكمال قدرته: الليل نُزيل عنه النهار ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾؛ أي: داخلون في الظلام، وفي الكلام تجوُّز؛ لأن السَّلْخ في الأصل هو إزالة الجلد عن الحيوان، فاستُعير لكشف

الضياء عن الظلام، وهذا يدل على أن الأصل هو الظلام والنهار طارئ عليه، ويزول عنه مرة أخرى، فتحل الظلمة.

قوله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾؛ أي: وآيةٌ له تعالى أخرى: الشمس تسير سيرًا سريعًا في فَلَكها بقدرة الله ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾؛ أي: إلى مستقرها المكاني؛ أي: تحت العرش، ويكون ذلك إذا غربت الشمس، كما جاء في حديث أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال يومًا حين غابت الشمس: «**أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتَخِر ساجدة**»[1]، الحديث.

وذهب طائفة من المفسرين إلى أن المراد مستقرُّها الزماني وهو يوم القيامة، وهو الوقت الذي تستقر فيه الشمس، وينقطع جريانها، ويشهد لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، وكلا المعنيين صحيح، ولا منافاة بينهما ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: جري الشمس على هذا النظام العجيب، والتدبير البديع الذي تَحار له العقول ﴿تَقْدِيرُ﴾؛ أي: تدبير ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: القوي الغالب لكل مخلوق ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾؛ أي: المحيط علمًا بكل شيء، والذي لا تخفى عليه خافية.

ويُلاحَظ أن هذين الاسمين يُذكران عقب ذكر هذه المخلوقات، كما في هذه السورة (يس) وسورة الأنعام في قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [٩٦]، وسورة فصلت في قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [١٢]، وهذا يدل على أن هذه الآيات السماوية من الشمس

---

(١) رواه البخاري (٣٠٢٧)، ومسلم (١٥٩)، واللفظ له.

والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار من مُقتضى كمال عزته تعالى، وكمال علمه خلقًا وتدبيرًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ منصوب بفعل يفسره ما بعده ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾؛ أي: والقمرَ قدَّرنا سيرَه في منازل، لا يتجاوزها ولا يقصر دونها، على طريقة واحدة لا تختلف أبدًا، وهي ثمانية وعشرون منزلًا، فيقطع الفَلَك في ثمان وعشرين ليلة، وينزل في كل ليلة منزلًا، ثم يسْتَسِر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، أو ليلة واحدة إن كان تسعة وعشرين، ويظهر القمرُ أول الشهر صغيرًا ثم يكبر ثم يصغر في آخر منازله، فإذا كان كذلك دقَّ في نظر العين وتقوَّس ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾؛ أي: صار ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ وهو عِذق النخلة الذي فيه الشماريخ، فهذا العِذق إذا قدُم دقَّ وانحنى واصفرَّ، فيصير القمرُ في آخر الشهر مشابهًا له في الدِّقة والانحناء والاصفرار.

ثم بيَّن تعالى أن لكل من الشمس والقمر حركة مقدَّرة وسلطانًا معلومًا؛ فقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: لا يَصِحُّ للشمس ولا يمكنها أن تخرج عن نظامها فتدركَ القمر في مسيره وتجتمع معه في الليل، فلكلٍّ من الشمس والقمر مَداره الخاص به، وسلطان الشمس في النهار، وسلطان القمر في الليل، فهما يتعاقبان ولا يلتقيان ما بقيت الدنيا، فإذا انتهى العالَم وقامت القيامة جُمِع الشمس والقمر ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ولا يَصِحُّ للَّيل أن يَغلب النهار فيحول دون مجيئه، ولا أن يهجم عليه قبل انقضاء وقته؛ بل هما متعاقبان.

وفي الآية احتباك[1]، وهو من بديع الكلام، والتقدير: لا الشمس

(١) الاحتباك: هو أن يُحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول؛ وهو من ألطف الأنواع البديعية وأبدعها، والاحتباك مأخوذ من الحَبْك، الذي معناه الشد والإحكام، وتحسين أثر الصنعة.

ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا القمر يدرك الشمس، ولا الليل سابق النهار، ولا النهار سابق الليل، وقارئ القرآن المتدبر يدرك ذلك ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف؛ أي: وكلٌّ من الشمس والقمر والليل والنهار ﴿فِي فَلَكٍ﴾ وهو السَّير المستدير ﴿يَسْبَحُونَ﴾؛ أي: يسيرون بانتظام دقيق، فلا يصطدم بعضُها ببعض، ولا يسبق بعضُها بعضًا، وأخبر عنها بضمير العقلاء؛ لأنه ذكر السَّباحة التي هي من خواص البشر، والله أعلم بأسرار كتابه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أنَّ من آيات الله الدالة على قدرته وحكمته ورحمته: الليل والنهار، والشمس والقمر.

٢ ـ أن آية النهار الشمس.

٣ ـ أن آية الليل القمر.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

٥ ـ أن الأصل في هذا الوجود الظلمة.

٦ ـ أنَّ من رحمة الله بالعباد أن خلق لهم من الشمس والقمر ما يُزيل عنهم الظلمة، إما بطلوع الشمس فيحل النهار، أو بطلوع القمر فيضيء الليل.

٧ ـ وقوع المجاز والاستعارة في القرآن؛ لقوله: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾.

٨ ـ أن الشمس تجري حقيقة، خلافًا لما يقوله أهل الهيئة الحديثة.

٩ ـ أن لجريان الشمس تقديرًا زمانيًّا ومكانيًّا.

١٠ ـ إثبات الاسمين الكريمين لله تعالى: العزيز العليم، وما دلَّا عليه من صِفَتي العزة والعلم.

١١ ـ أن للقمر منازل في السماء، وهي ثمان وعشرون منزلة، يعرفها أهلُ الحساب.

١٢ ـ أن نور القمر في الليل يتدرج حسب منازله في عدة الشهر؛ ففي أول الشهر يستنير أولَ الليل، وفي آخر الشهر يستنير آخرَ الليل، وفي وسط الشهر يستنير الليلَ كله، ولهذا يقال: أيام البيض؛ أي: أيام الليالي البيض، وهي ليالي الإبدار.

١٣ ـ أن العلم بمنازل القمر وسيلة لمعرفة حساب الزمان.

١٤ ـ أن الشمس لن تدرك القمر، فتطلعَ في وقت سلطانه.

١٥ ـ أن الليل لن يسبق النهار؛ بل يدركه النهار فيذهب بظلامه، ولن يسبق النهارُ الليل؛ بل يدركه الليل فيغشاه بظلامه.

١٦ ـ إثبات العظمة لله؛ لذكره نفسه بصيغة الجمع، ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾.

١٧ ـ أن نظام الشمس والقمر والليل والنهار من رحمة الله بعباده، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

١٨ ـ إثبات خالق للكون، وهو الله تعالى خالق كلِّ شيء.

١٩ ـ أن هذه المخلوقات الشمس والقمر والليل والنهار في فَلَك يدور، فتدور بدَوَرانه.

٢٠ ـ أن هذه المخلوقات: الشمس والقمر والليل والنهار منقادة لله تعالى في تدبيره.

٢١ ـ الإرشاد إلى النظر في آيات الله من الليل والنهار، والشمس والقمر.

ولما ذكر تعالى بعضَ آياته في الأرض وفي السماء، ذكر بعضَ آياته في البحر؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ التذكيرَ بآية الفُلك، وأول هذا النوع من المراكب التي حمل اللهُ الناس عليها سفينة نوح، وقد قيل: إنها هي المراد بهذه الآية، وكذلك التذكير بما خلق اللهُ لعباده من المراكب من بهيمة الأنعام، والتذكير بحفظهم إذا ركبوا البحر، وأنه تعالى المتفرِّد بإغراقهم ونجاتهم إذا شاء، ومع ذلك إذا أُمروا باتقاء العقوبات سابقة أو لاحقة لم يَرعوُوا، وكذلك لم تأتهم من آية من آيات ربهم إلا أعرضوا عنها، وكذلك إذا أُمروا برحمة الفقراء والمساكين بالتصدُّق عليهم عارضوا ذلك بالقدر، وأن الله لم يشأ أن يطعم هؤلاء، فكيف نطعمهم؟! وأن المؤمنين بإنفاقهم على الفقراء ـ في زعمهم ـ معارضون لمشيئة الله، فكانوا عندهم في ضلال مبين.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾؛ أي: وعلامة أخرى عظيمة لهؤلاء

المشركين دالة على ربوبيته تعالى ورحمته ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: ذرية أبيهم نوح، الذي هو الأب الثاني للبشرية، وجائز في الاستعمال أن يُضاف إلى الأبناء ما هو للأب، وقيل: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: ذرية جنسهم، أو مَن هو مِن جنسهم، وهو نوح عليه السلام ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: سفينة نوح ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: المملوء من أجناس المخلوقات؛ لأن الله أمر نوحًا عليه السلام حين أراد إهلاك قومه بالطوفان أن يحمل معه من كلٍّ زوجين اثنين، ويدل على أن المراد بالفُلك في الآية سفينةُ نوح أنه جاء وصفُها في سورة الشعراء بالمشحون، حيث ذُكرت هناك قصة هذا النبي الكريم، قال سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]، فسارت تلك السفينة بأحمالها فوق أمواج الطوفان الذي لم يُر مثله في تاريخ البشر، حتى شُبِّهت أمواجها بالجبال، فسلمت بإذن الله.

قوله سبحانه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي: وآية أخرى أنا خلقنا لهم من مثل سفينة نوح ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾؛ أي: ما يركبونه من السُّفن مستمرين عليه في كل زمان، فهذه السُّفن من آيات الله المذكِّرة به سبحانه، وأنه الرب الملك والإلٰه المستحق للعبادة، إذْ تسير تلك السفن على متن البحر بما عليها من الأحمال العظيمة من البشر والمواشي والأمتعة، ولو أُلقي في البحر إبرة لغاصت إلى أعماقه، فسبحان اللطيف الرحيم، ما أعظم سلطانه! وما أجلى برهانه!

وذكر بعض المفسرين أن المراد من ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ الإبلُ وسائرُ ما يركب في البر، ولكن يُضعفه قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ فالحديث عن السُّفن؛ أي: وإن نرد إغراقَهم في الماء أغرقناهم ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾؛ أي: فلا مُنقذ لهم، فالصَّريخ فَعيل بمعنى اسم الفاعل: مفْعِل، يقال: أصرَخه إذا أغاثه، فهو صَريخ ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ أي: ولا هم ينجون من الموت

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ استثناء متصل؛ لأن رحمة الله أعظم مُنقذ؛ أي: أنقذناهم رحمةً منا بهم، وليتمتعوا بالحياة الدنيا إلى وقت آجالهم التي لا بد لهم منها، و﴿رَحْمَةً﴾ و﴿وَمَتَٰعًا﴾ منصوبان على المفعول لأجله.

ثم ذكر تعالى شيئًا من أفعال كفار قريش القبيحة وأقوالهم؛ فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: قال لهم قائل، أيًّا كان ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: احذروا أمْر الآخرة وشدائدها فاعملوا لها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ يعني: الدنيا؛ أي: احذروها ولا تغتروا بها.

وجعل طائفة من المفسرين معنى الآية: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: احذروا عقوبات الأمم المتقدمة ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾؛ أي: عذاب الآخرة، وكلا المعنيين صحيح وثابت عن السلف، والآية تحتملهما، ويؤيد الوجه الأول ما يأتي، وهو قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لأجل أن يرحمكم الله إذا اتقيتموه، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف للعلم به، التقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، وقد دلَّ عليه قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: من آياته تعالى الدالة على وجوب إفراده بالعبادة وصدق رسوله ﷺ، سواء أكانت آية كونية كالإسراء وانشقاق القمر نصفين، أو آية من القرآن ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: أعرضوا عن كل آية إعراضًا تامًّا، ولا يصدقون بها، وأضيفت الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم؛ لتأكيد إقامة الحجة عليهم وتوبيخهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟﴾؛ أي: تصدَّقوا على الفقراء ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: من المال الذي أعطاكم الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾؛ أي: قال الكفار للمؤمنين، ولم يقل: قالوا، ذمًّا لهم، وتسجيلًا

عليهم بالكفر، واللام في ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للتعدية؛ أي: تعدية فعل القول ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾؛ أي: أنعطي من لو يشاء اللهُ إعطاءه أعطاه؟ والاستفهام للإنكار ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ما أنتم إلا في خطأ واضح حيث تأمروننا بالإنفاق على من لو شاء اللهُ أطعمه، وهذا احتجاج منهم بالقدر؛ لدفع اللوم عنهم بترك الإنفاق، ودلَّت الآيةُ على أنهم أهل بخل شديد، فلم يكتفوا بمنع الإطعام؛ بل لاموا مَن ينفق ومَن يأمر به.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من آيات الله ونعمه المراكب التي حمل اللهُ العباد عليها، مما يصنعونه بأيديهم كالسفن والسيارات والطائرات، أو ما خلقه اللهُ لهم من الحيوان من الإبل والخيل والبغال والحمير.

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

٣ ـ امتنان الله بإنقاذ البشرية من الطوفان في سفينة نوح عليه السلام.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

٥ ـ أن السفينة التي كان عليها نوح كانت مملوءة بالركاب وأجناس الحيوان.

٦ ـ أن إنعام على الله على الذُّرِّيَّة إنعام على الآباء، كما أن الإنعام على الآباء إنعام على الذرية.

٧ ـ أن المماثلة لا تقتضي المساواة في كل شيء؛ لقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

٨ ـ أن الله هو خالق ما يركبه الناس من الدواب.

٩ ـ أن خَلْق هذه المراكب واستقرار أهلها عليها من نعم الله على العباد.

١٠ ـ فيها شاهد لقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، ونظائر ذلك كثيرة.

١١ ـ أن راكبي البحر نجاتهم أو غرقهم راجعٌ إلى مشيئة الله.

١٢ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

١٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [الشورى: ٣٣، ٣٤].

١٤ ـ أن من شاء الله أن يُغرقه في البحر فلا مُنقذ له إلا الله؛ رحمة منه تعالى، ولِيُبْلِغه أجله.

١٥ ـ إثبات الرحمة لله تعالى.

١٦ ـ أن الحياة في هذه الدنيا مقدَّرة بضرب الآجال.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى في قوم يونس: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

١٨ ـ أن هؤلاء الكفار قد أُقيمت عليهم الحجة بما قصَّ اللهُ عليهم من الأنباء.

١٩ ـ إصرار الكفار على كفرهم وعصيانهم، فلا يُجدي فيهم إنذار ولا تحذير.

٢٠ ـ جواز حذف جواب الشرط إذا دلَّ عليه دليل.

٢١ ـ إعراضهم عن آيات الله، فلا يعتبرون ولا يتذكرون.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤].

٢٣ ـ أن التقوى سبب للرحمة؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٢٤ ـ إثبات الربوبية العامة لله تعالى.

٢٥ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

٢٦ ـ مشروعية التصدق على الفقراء.

٢٧ ـ أن ما بأيدي الناس من المال هو رزق من الله.

٢٨ ـ أن من الحسن في الدعوة التذكير بما يعين المدعو على فعل المأمور؛ لقوله: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢٩ ـ أن الكفار المُقِرِّين بتوحيد الربوبية يُثبتون المشيئة لله تعالى.

٣٠ ـ إقرار الكفار بأن الله هو الرازق للعباد، والمطعم لهم.

٣١ ـ أنهم أهل شحٍّ وبخلٍ، حتى إنهم إذا دُعوا إلى الإنفاق احتجُّوا بالقدر، ومع ذلك ينكرون على المؤمنين التصدق والإحسان.

٣٢ ـ رَمْي الكفار المؤمنين بما هم أحقُّ به من الضَّلال البيِّن.

٣٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢].

ثم أخبر تعالى عن إنكار المشركين للبعث وتهديده سبحانه لهم؛ فقال سبحانه:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن قول المشركين المكذبين باليوم الآخر عنادًا واستبعادًا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والإخبارَ عن الصيحة التي تأخذهم وهم في هذه الحياة قبل يوم القيامة، وهي صيحة الفَزَع والصَّعق، ثم الإخبار عن الصيحة الأخرى، وهي النفخ في الصور؛ لبَعْث الأموات من القبور، وما يقولونه بعد خروجهم من القبور، وما يُقال لهم، وما هي إلا هذه الصيحة، ثم هم مُحضَرون ومجموعون عند الله للحساب، والله يحاسبهم ويجزيهم، ولا يظلم ربك أحدًا.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول المشركون للمؤمنين ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: متى هذا الموعود به وهو البعث الذي تُخوِّفوننا وتعدوننا به؟ والاستفهام في كلامهم للاستبعاد والتكذيب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: إن كنتم صادقين فأخبرونا: متى يقع؟ وقد أجابهم اللهُ بأبلغ جواب؛ فقال سبحانه:

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾؛ أي: ما ينتظر هؤلاء وأمثالهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي نفخة الفَزَع المؤذِنة بنهاية الحياة الدنيا وقيام الساعة؛ فإن إسرافيل عليه السلام ينفُخ في الصور نفختين، الأولى: نفخة الفَزَع وهي نفخة الصَّعق، وسمَّاها اللهُ صيحة؛ لأن لها صوتًا عظيما، ووصفَها بواحدة؛ تأكيدًا لإفادة الوحدة؛ أي: صيحة واحدة لا أكثر من ذلك، فيُصعق الخلائقُ في إثرها، ولهذا قال سبحانه: ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾؛ أي: تُهلكهم فجأة ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم يختصمون؛ أي: يتنازعون في أسواقهم ومعاملاتهم، لا يخطر ببالهم أمْر الساعة؛ فهم عنها غافلون، وأصل: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ يختصمون، حُذفت حركة التاء فصارت ساكنة، فالتقى ساكنان، فكُسرت الخاء لالتقاء الساكنين، وقُلبت التاء صادًا، وأُدغمت في الصاد، فصارت ﴿يَخِصِّمُونَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾؛ أي: عند هذه الصيحة لا يستطيع الواحدُ منهم أن يوصي بشيء لا على ماله، ولا ولده، ولا يُمهَل ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: ولا يرجعون إلى أهليهم؛ لأنهم يموتون في الحال في أماكنهم، وهذه الجملة كالتأكيد لما قبلها؛ لأنهم إذا عجَزوا عن التوصية بالقول فأحرى أن يعجِزوا عن التوصية بالفعل.

ثم ذكر تعالى النفخة الثانية وهي نفخة البعث وما يكون عندها، فقال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ عبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع؛ كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، والصُّور آلة يُنفخ فيها، وهو قرن عظيم، كما في الحديث[1]، ﴿فَإِذَا هُم﴾؛ أي: الأموات جميعًا

(١) رواه أحمد (٢/ ١٩٢، ١٦٢)، والترمذي (٢٤٣٠) وحسَّنه، وأبو داود (٤٧٤٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ، فقال: ما الصور؟ فقال: «قرن يُنفخ فيه»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٨٠).

﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ أي: القبور جمع جدَث ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾؛ أي: يخرجون أحياءً مُسرعين إلى ربهم خالقهم ومالك أمرهم، للحساب والجزاء، والنَّسَلان هو المشي السريع.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال هؤلاء الكفارُ المكذبون بالبعث حين يخرجون من قبورهم ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾؛ أي: يا هلاكنا ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؛ أي: مَن بعثنا من قبورنا؟ والاستفهام للتعجُّب، وهذا لا ينفي أن الكفار يُعذَّبون في قبورهم؛ لأنهم بالنسبة إلى العذاب الأكبر كأنهم في مَراقدهم، فيقال لهم: ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: البعث ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: ما وعد به ربُّكم، وذِكر اسم الرحمٰن دون غيره من الأسماء الحسنى؛ لأن البعث والجزاء من آثار رحمته تعالى ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: وصَدَق الرُّسُلُ فيما أخبروكم من البعث وأنه واقع لا ريب فيه، قيل: إن هذا من كلام الملائكة توبيخًا لهم، وقيل: من كلام المؤمنين، والله أعلم.

ثم بيَّن تعالى أن جَمْع الخلائق هيِّن عنده؛ فقال سبحانه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: ما كان بعثُهم وجَمْعُهم إلا صيحة واحدة، يصيح بهم الملَك ﴿فَإِذَا هُمْ﴾؛ أي: الأولون والآخرون ﴿جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾؛ أي: مجموعون لدينا ﴿مُّحْضَرُونَ﴾؛ أي: أحضروا للحساب والجزاء، فلا أحد يتخلف، و﴿إِذَآ﴾ للمفاجأة فتدل على سرعة حصول ذلك.

ثم ذكر تعالى ما يكون في ذلك اليوم من إقامة العدل ونفي الظلم؛ فقال سبحانه: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة، و(أل) للعهد الذكري؛ لتقدُّم ذكر أحداث هذا اليوم ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا تُنقَص نفسٌ مطيعةٌ أو عاصيةٌ شيئًا من عملها، ولا تَحمِل وزرَ غيرها، فلا يُنقَص محسنٌ من حسناته، ولا يُزاد مسيء في سيئاته ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: تنالون جزاء أعمالكم من خير أو شر.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أصول الإيمان التي يكذب بها الكافرون: الإيمان باليوم الآخر.

٢ ـ مبالغة الكفار في التكذيب بهذا اليوم، واستبعادهم له، واستهزاؤهم بما أُخبِروا فيه من عذاب الله.

٣ ـ إثبات الصُّور، وهو قرن، كما في الحديث.

٤ ـ إثبات الصَّيحتين، وهما النفختان في الصور: نفخة الصعق، ونفخة البعث.

٥ ـ أن نفخة الصَّعق تكون والناس مشغولون بشؤون الحياة والتخاصُم فيها.

٦ ـ أن دأب الناس في هذه الدنيا التخاصُم عليها.

٧ ـ شدة الفَزَع الذي يأخذ الناس على إثر تلك الصيحة.

٨ ـ الإرشاد إلى المبادرة بالوصية قبل فجأة الموت.

٩ ـ أن الناس عند النفخة يفزعون فيتحيرون، فلا يستطيعون التصرُّف بالوصية، ولا الرجوع إلى أهليهم.

١٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

١١ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: **«لتقومنَّ الساعة وقد نشَر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة وقد انصرف الرجلُ بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنَّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أُكْلته إلى فيه فلا يطعمها»**[1].

(١) رواه البخاري (٦١٤١)، ومسلم (٢٩٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١٢ ـ أن نفخة البعث من القبور تكون بعد نفخة الصَّعق.

١٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

١٤ ـ أن النَّفخ في الصُّور صيحة، ولهذا يُذكر بهذا اللفظ في بعض الآيات، كما في هذه السورة.

١٥ ـ أن صيحة البعث واحدة.

١٦ ـ سرعة اجتماع الناس وحشرِهم على إثر هذه الصيحة.

١٧ ـ كمال قدرة الله ببعث الخلق الكثير في الساعة الواحدة.

١٨ ـ أن الناس يُجمعون للحساب والجزاء على الأعمال، فلا يتخلف منهم أحد.

١٩ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

٢٠ ـ شعور الكفار بالخيبة والحسرة إذا بُعثوا من قبورهم.

٢١ ـ توبيخ المكذبين بعد البعث؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٢٢ ـ إثبات اسم الرحمٰن لله تعالى، وما دلَّ عليه من صفة الرحمة.

٢٣ ـ صدق الرسل عليهم السلام فيما أخبروا به من أمر البعث.

٢٤ ـ إثبات عندية المكان؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

٢٥ ـ تنزيه الله عن الظلم في جزاء العباد.

٢٦ ـ أنه لا يُظلَم أحد من المكلفين؛ لا مؤمن ولا كافر.

٢٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

٢٨ ـ كمال عدل الله تعالى.

٢٩ ـ إثبات الجزاء على الأعمال.

٣٠ ـ الرد على الجبرية.

ولما أخبر تعالى عن وقوع البعث وأنه كائن لا مَحالة؛ ذكر مصير الناس بعد الحشر والحساب، فذكر مصير المؤمنين أوَّلًا؛ **فقال سبحانه:**

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ البشرى للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم أصحاب الجنة، وبيان حالهم في ذلك اليوم، حين يصيرون إلى الجنة، فيتمتعون بأنواع النعيم؛ كالفاكهة مع الأزواج على الأرائك في ظل ظليل، وفوق ذلك سلامُ الله عليهم، الربِّ الرحيم، فيالها مِن سعادة ما فوقها إلا النظرُ إلى وجه الله الكريم!

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم المؤمنون المتقون ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة بعد دخول الجنة، وأل في ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ للعهد الذكري؛ لأنه اليوم المتقدم، وهو يوم الجزاء ﴿فِى شُغُلٍ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: مشغولون بالتمتُّع بأنواع النعيم الذي لا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به الأفهام، كما يُفيده تنكير ﴿شُغُلٍ﴾، وفي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]؛ أي: لا يطلبون تحوُّلًا عنها.

قوله سبحانه: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبر بعد خبر؛ أي: متنعِّمون متلذِّذون، من الفَكاهة، وهي طيب العيش مع النشاط، يقال: فاكِهٌ وفَكِهٌ.

وأخرج ابنُ جرير عن ابن مسعود وابن عباس ﷺ في تفسير الشُّغل أنه افتضاض الأبكار[1]، وهذا مِن أفراد النعيم الذي تشمله الآية، وهو تفسير صحيح يؤيده السياق؛ لأن الله قال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾.

وذكر بعضُ المفسرين في معنى الآية: أنهم في شُغل عمَّا فيه أهل النار، وهذا تفسير ضعيف؛ لأن الله أخبر عن أهل الجنة أنهم في بعض مجالسهم يتساءلون عن المجرمين أهل النار، وأنهم يسألونهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، وأن أهل النار يجيبونهم، وذكر تعالى عن بعض أهل الجنة أنهم يتذكرون أصحابًا لهم في الدنيا من أهل النار، وأنهم يطَّلعون عليهم فيها، ويقع بينهم حوار، وهو المذكور في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [٥١] الآيات، وأخبر تعالى أن أهل الجنة ينادون أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾؛ أي: هم وزوجاتهم، وهذا من كمال النعيم، فليسوا منفردين بأنفسهم ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظِل، مثل شِعْب وشِعاب، وهو الموضع الذي لا تصل إليه الشمس، وقد أخبر تعالى أن الجنة لا شمس فيها؛ فقال سبحانه: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة، وهي السرير الذي عليه ستائر مُرخاة من فوق، وهي الحَجَلة، فإذا لم تكن عليه ستائر فلا يسمَّى أريكة ﴿مُتَّكِئُونَ﴾؛ أي: متكئون هم وأزواجهم على تلك الأرائك، والاتكاء جلسة الناعم الآمن الخالي من الهموم والكُلف، وهي هيئة بين الاضطجاع والجلوس، وهي جلسة أهل الرفاهية، فذلك دليل على تمكُّنهم من أنواع الملاذ.

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٢٠).

وإعراب الآية: ﴿هُمْ﴾ مبتدأ و﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ معطوف عليه، ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ خبر أول، ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ خبر ثان ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ متعلق بـ ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ قدِّم عليه لأجل الفواصل.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ هذا من التفصيل لما أُجمل في قوله: ﴿فِي شُغُلٍ﴾؛ أي: لهم في الجنة فاكهة من كل نوع يتفكهون بها ويتلذَّذون؛ لأن الأكل هناك ليس لدفع الجوع ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾؛ أي: ولهم فيها كلُّ ما يطلبونه، من الدعاء بمعنى الطلب.

ثم ذكر تعالى ما به نعيم أرواحهم، وهو أعظم مما تقدم، وهو سلامُ الله العظيم عليهم وتحيتُه المباركة لهم؛ فقال سبحانه: ﴿سَلَامٌ﴾؛ أي: سلام حاصل لهم ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾؛ أي: خطابًا من الله تعالى دون واسطة، و﴿مِّن﴾ ابتدائية، وانتصاب ﴿قَوْلًا﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف دلَّ عليه الكلام؛ أي: سلامٌ يُقال لهم قولًا، وذِكر اسم الرب الرحيم إشارة إلى أن ما أُكرِم به أهلُ الجنة هو من مقتضى ربوبيته ورحمته تعالى.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الناس يكونون في ذلك اليوم فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وفي هذه الآيات وما بعدها ذكر الفريقين ومصيرهما.

٢ ـ أن أصحاب الجنة مشغولون بالتنعُّم بأنواع النعيم التي أعطاهم الله، لا يتمنَّون غيرها.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

٤ ـ إثبات الجنة.

٥ ـ وجوب الإيمان بها.

٦ ـ أن لأصحاب الجنة أزواجًا يتمتعون بهن من الحور العين، ومن النساء المؤمنات.

٧ ـ أن تمتُّع أصحاب الجنة بأزواجهم هو من جنس التمتُّع المعروف في الدنيا، وهو الجماع ودواعيه.

٨ ـ أن الجنة كلها ظِلال، فلا شمس فيها.

٩ ـ أن في الجنة أرائك يُتكَّأ عليها، ويُجلس فوقها.

١٠ ـ أن من نعيم أهل الجنة أنواع الفاكهة.

١١ ـ أن لأهل الجنة كلَّ ما يطلُبون من النعيم.

١٢ ـ الردُّ على الفلاسفة في قولهم: إن نعيم الجنة وعذاب النار ليس حسِّيًا؛ بل روحيًا.

١٣ ـ أن الله يسلِّم على أهل الجنة سلامًا بكلام.

١٤ ـ أن أهل الجنة في سلامة دائمة من كل سوء وآفة.

١٥ ـ أن الله يحيِّي أهل الجنة بالسلام عليهم.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

١٧ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

١٨ ـ إثبات الرحمة الخاصة.

١٩ ـ أن من أسماء الله وصفاته: الرحيم.

٢٠ ـ الترغيب في الأعمال الموصلة إلى الجنة ونعيمها.

ولما ذكر تعالى ما أعد من النعيم للمؤمنين، وذكر حالهم في الجنة مع أزواجهم، ذكر حال الأشقياء المجرمين، وما يُقال لهم في ذلك اليوم؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ أنه يُقال يوم القيامة للمجرمين، وهم الكفار: امتازوا؛ أي: تميَّزوا بأنفسكم عن غيركم، وأن الله تعالى يوبِّخهم على شركهم وعصيانهم لله، وعبادتهم الشيطان، ثم يخبر تعالى أن الشيطان أضلَّ كثيرًا من الناس، وأنه يُقال للمجرمين: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وأنه يُختَم على أفواههم، فتنطق جوارحُهم ـ أيديهم وأرجلهم ـ وتشهد عليهم بأعمالهم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ﴾، (أل) في اليوم للعهد الحضوري؛ أي: ويُقال للكفار: امتازوا هذا اليوم الذي تذهل فيه العقول، وتنخلع لهوله القلوب؛ أي: تميَّزوا وانفردوا عن المؤمنين؛ لأن جزاءكم غيرُ جزاء أولئك، وفي هذا الأمر إهانة لهم وذمٌّ، ولهذا يُنادون بـ ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: الكافرون، والمجرم في لغة القرآن هو الكافر،

سمِّي بذلك؛ لأنه جاء بأعظم جُرم، وهو الشرك بالله.

ثم يخاطبهم اللهُ بالعتاب والتوبيخ، فيقول سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ العهد هو الوصيَّة، يقال: عَهِد إليه إذا وصَّاه؛ أي: ألم أوصِكم يا بني آدم على ألسنة الرُّسُل؟ والاستفهام للتقرير والإفحام ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ هذا تفسير للعهد؛ أي: ألَّا تطيعوا الشيطان، ولا تنقادوا له، وكلُّ من أطاع الشيطان فهو عابد له، وهذه الوصية جاءت في مثل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، ثم علَّل النهي بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ أي: عدوٌّ لكم بيِّن العداوة، فكيف يُطيع الإنسانُ عدوَّه؟!

ونداؤهم هنا ببني آدم يتضمن التذكيرَ بعهده تعالى إلى أبيهم آدم، وهو ألَّا يُطيع الشيطان، قال تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

قوله سبحانه: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾؛ أي: وأن اعبدوني دون غيري ﴿هَذَا﴾؛ أي: ما نهيتُكم عنه وهو عبادة الشيطان، وما أمرتُكم به وهو عبادتي وحدي ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: طريق مستقيم موصل إلى الجنة، ولكنهم لم يسلكوه بل سلكوا سبيل الشيطان، وأطاعه كثيرٌ من الناس، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ﴾؛ أي: أغوى الشيطانُ منكم ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾؛ أي: خلقًا كثيرًا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ أي: أفلم تكن لكم عقول حين أطعتُم الشيطان؟! وإغواء الشيطان لهم دليل على نقص عقولهم.

ثم يُقال لهم توبيخًا وتحسيرا: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: هذه التي

تشاهدونها جهنم، وفي ذلك إشارة إلى قربها منهم ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ أي: التي كنتم توعدون بها في الدنيا، ولكنكم لم تصدِّقوا ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ الأمر للإهانة؛ أي: ادخلوا جهنم وقاسوا حرها وشدائدها في هذا اليوم العصيب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفركم، ويا له من بَون عظيم بين الفريقين، فالمؤمنون في شغل فاكهون في جنات النعيم، والمجرمون يُكابدون العذاب في دركات الجحيم.

قوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة، وأنت ترى أن هذا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ تكرر ذكرُه خمس مرات معرفا بـ (أل) فهو تنبيه على عِظم شأنه، ووجوب الاستعداد له ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي: نمنعهم من الكلام بأفواههم، وتنطق جوارحُهم، ولهذا قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ هذا من الاحتباك؛ أي: تُكلِّمنا أيديهم فتشهد، وتشهد أرجلُهم فتُكلِّم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: بما كانوا يكسبونه من السيئات في الدنيا.

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «**هل تدرون مِمَّ أضحك؟**» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**من مخاطبة العبد ربَّه، يقول: يا رب ألم تُجرْني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا منِّي، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيُختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلَّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعدًا لكُنَّ وسُحقًا، فعنكُنَّ كنتُ أناضل**»[1].

(١) مسلم (٢٩٦٩).

الفوائد والأحكام:

١ ـ اشتمال القرآن على الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

٢ ـ أن من كلامه تعالى العهد والوصيَّة إلى مَن يشاء سبحانه.

٣ ـ أن الله أقام الحجة على خلقه بما عَهِد إليهم على ألسُن رُسُله في عبادته تعالى وحده.

٤ ـ أنه يُفصَل بين المجرمين ومعبوديهم وبينهم وبين المؤمنين؛ أي: يميَّزون لسَوقهم إلى جهنم.

٥ ـ توبيخ المجرمين على تضييعهم عهد الله بالتوحيد وترك الشرك.

٦ ـ عداوة الشيطان لبني آدم، وهي أصل إضلاله لهم.

٧ ـ أن الشيطان قد أضلَّ خلقًا كثيرًا من بني آدم.

٨ ـ أن طاعة الشيطان بالشرك عبادةٌ له.

٩ ـ أن كلَّ مَن عبد غير الله فهو عابد للشيطان.

١٠ ـ وجوب التوحيد، وهو إفراده تعالى بالعبادة.

١١ ـ أن التوحيد يقوم على النفي والإثبات؛ لقوله: ﴿لَا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾.

١٢ ـ أن الصراط المستقيم في العبادة هو التوحيد.

١٣ ـ كثرة من أضلَّهم الشيطان من بني آدم.

١٤ ـ أن الشرك مُنافٍ للعقل.

١٥ ـ أن من حُجج الله على العباد ما أعطاهم من العقول.

١٦ ـ أن المجرمين يُعرَضون على جهنم، ويعرَّفون بأنها التي كانوا يوعدون.

١٧ ـ أنهم يُؤمرون بدخولها لمُقاساة عذابها.

١٨ ـ أن ذلك بسبب كفرهم.

١٩ ـ إثبات الأسباب.

٢٠ ـ إثبات النار.

٢١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

٢٢ ـ أنَّ كلَّ أحداث الآخرة ومَشاهدها مصداقٌ لوعد الله.

٢٣ ـ أنَّه يختَم على أفواه المجرمين يوم القيامة، وتنطق جوارحُهم فتشهد عليهم.

٢٤ ـ أن الإنسان يُحشر بأعضائه الأصلية التي عمل بها في الدنيا؛ لأنها هي التي تتأتَّى منها الشهادة، وأن الاستحالة في القبور لا تُزيل حكم هذه الأعضاء.

٢٥ ـ الدِّلالة على قدرة الله بإنطاق الأشياء.

٢٦ ـ وقوع الأمور الخارقة للعادة في الآخرة.

٢٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

ثم عاد السياقُ إلى تهديد المشركين في الدنيا؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بأنه تعالى لو شاء لطمس على أعين الكفَّار، ولو شاء لمَسَخهم فلم يقدروا على التحوُّل من مكانهم تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، وأنَّ من يُعمِّره اللهُ يُنكِّسْه في الخلق إلى أرذل العمر، ثم أخبر تعالى عن تنزيهه لنبيِّه ﷺ عن تعليم الشعر، وأنه لا يليق به، وأنَّ ما جاء به من القرآن ذِكر يُتَذكر به، وقرآنٌ بيِّنُ المعاني لمن تدبَّره، ثم بيَّن الحكمة من إنزال القرآن، وهي إنذار مَن كان حيَّ القلب، وليَحِقَّ القولُ على الكافرين المعرضين عنه.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾؛ أي: ولو نشاء الطَّمسَ على أعينهم لطمسنا عليها؛ أي: لأعميناهم في الدنيا، والطَّمس أشد من الإعماء؛ لأنه محو شق العين بالكلية حتى تعود ممسوحة، والفعل (طمس) يتعدى بنفسه، كما قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧]، وتعديته بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾ تدل على تمكُّن الطمس، أو أن الفعل مضمَّن معنى (جعل)؛ أي: جعلنا على أبصارهم غشاوة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ أي: فتسابقوا إلى الطريق المألوف الذي اعتادوا سلوكَه ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: فكيف يُبصرونه وقد أعميناهم؟! فالاستفهام يُراد به النفي.

فمعنى الآية: لو نشاء لأعميناهم، فلو أرادوا المشيَ إلى مصالحهم لم يقدروا على ذلك.

ثم هدَّدهم تعالى بما هو أعظم من العَمى؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ولو نشاء مَسْخَهم لمسخناهم؛ أي: لغيَّرنا صورهم إلى صور قبيحة ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾؛ أي: في مكانهم الذي كذبوا فيه الرُّسُل، يقال: مكان ومكانة، والتأنيث على تأويله بالبقعة ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾؛ أي: لا يستطيعون سيرًا إلى الأمام ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: إلى الوراء، فيبقون ثابتين في أماكنهم كالجماد، وهذا من باب التَّرَقِّي في التهديد؛ ففي الآية الأولى إبطال القوة الباصرة، وفي الثانية إبطال القدرة على الحركة.

والله تعالى قادر على أن يفعل ما توعَّدهم به، وهم مستحقون له، ولكنه لم يفعل شيئًا من ذلك، نعمة منه وفضلًا، أو إملاءً لهم لعلهم يرجعون.

قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾؛ أي: ومَن نُطل عمره منهم فيسلم من الطَّمْس والمَسْخ وغيرهما من الآفات ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾؛ أي: نرده إلى أرذل العمر وأضعفه؛ فهو تنكيس معنوي؛ لأن أصل التنكيس جعل أعلى الشيء أسفل؛ لأن ذلك ردٌّ إلى مثل ما كان عليه في طفولته ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أفلا يعقلون ذلك فيتوبوا إلى ربهم ويخلصوا له العبادة؟

ولما كان المشركون يصِفون النبي ﷺ بأنه شاعر، ويقولون عن القرآن: إنه شعر؛ ليتوصلوا بذلك إلى تكذيبه؛ لأن الشعر يقوم على

الخيال والمبالغة؛ نزَّه اللهُ نبيَّه عمَّا وَصَموه به بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾؛ أي: وما علّمَنا رسولنا الشعر ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾؛ أي: وما يصح له ولا يليق به أن يكون شاعرًا؛ بل ذلك ممتنع في حقه ﷺ؛ لأنه نبيٌّ مرسَل من الله، لا يقول إلا الحق، وما جاء به من القرآن فهو كلام الله ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هذا المنزَّل على الرسول ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾؛ أي: تذكير يتذكر به أولو الألباب ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: وقرآن واضح لمن تدبَّره، ومُبيِّن للحق من الباطل والهدى من الضلال، وليس شعرًا كما يفترون.

وما جرى على لسان النبي ﷺ من الكلام الموزون؛ كقوله: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[1]، فذلك وقع اتفاقًا لا قصدًا للشعر، فقد قالوا في تعريف الشعر: هو الكلام الموزون بقصد.

وهكذا يُجاب عمَّا يُدَّعى من آيات القرآن أنها جاءت على أوزان الشعر وبُحوره، فنقول: إن ذلك ليس من الشعر في شيء؛ لعدم القصد، ولأن الله نفى أن يكون القرآن قول شاعر.

وليس في الآية ما يدل على ذم الشعر من حيث هو؛ بل هو كسائر الكلام، حسنه حسن، وقبيحه قبيح؛ فما كان في هجاء المشركين ومدح الإسلام وأهله ونحو ذلك من المقاصد الحسنة، فهو محمود، وإذا تضمَّن ما يُنافي الشرع؛ كالغزل الفاحش، وهجاء المسلمين، والفخر بالنفس والقبيلة، فذلك مذموم، وكان النبي ﷺ ربما استمع إلى الشعر، وقال: «**إن من الشعر حكمة**»[2].

ثم ذكر تعالى مَن ينتفع بهذا القرآن؛ فقال سبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ

---

(١) رواه البخاري (٢٧٠٩) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٥٧٩٣) عن أُبي بن كعب رضي الله عنه.

حَيًّا﴾، ﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلق بمحذوف، تقديره: جعلناه ذكرًا وقرآنًا مبينًا لينذر؛ أي: ليخوِّفَ القرآنُ مَن كان حيَّ القلب عاقلا ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ولِيثبُتَ ويتحققَ قولُ الله على الكافرين، وهو قضاؤه وحكمه بأنهم معذَّبون في النار؛ إذْ تقوم الحجةُ عليهم بهذا القرآن.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات عظمة الله؛ لذكره نفسه بصيغة الجمع من أول الآيات إلى آخرها.

٢ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٣ ـ قدرته تعالى على سَلْب القوى التي أعطاها الإنسانَ من الأسماع والأبصار، فهو المُنشئ لها، والمُبقي لها.

٤ ـ أن من عقوبات الله للكافرين: المَسْخ.

٥ ـ أن مَن مَسَخه الله لا يستطيع تحوُّلًا بتقدُّم ولا تأخر.

٦ ـ أن مَن أطال الله عمره ردَّه إلى أرذل العمر.

٧ ـ أن في طول عمر الإنسان وتنكيسه في الخلق دلالاتٍ يعتبر بها ذوو العقول.

٨ ـ الإرشاد إلى اغتنام طور القوة والشباب بالعمل الصالح.

٩ ـ تسفيه مَن لا يعتبر بأطوار عمره.

١٠ ـ تنزيه النبي ﷺ عن الشعر.

١١ ـ الردُّ على المشركين في زعمهم أن النبيَّ ﷺ شاعر.

١٢ ـ أن الشعر لا يليق بمقام النبي ﷺ.

١٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١].

١٤ ـ أن القرآن أُنزل للذكر وللإنذار به.

١٥ ـ أن القرآن بيانٌ للناس.

١٦ ـ أن القرآن بيِّن الدلالات ومفهوم المعاني، ويتفرع على ذلك:

١٧ ـ الإنذار بالقرآن وإقامة الحجة به.

١٨ ـ أنه لا ينتفع بهذا القرآن إلا مَن كان حيَّ القلب.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

٢٠ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾.

٢١ ـ أن مَن أعرض عن القرآن تَحِق عليه كلمةُ العذاب، فلا يؤمِن.

٢٢ ـ إثبات القول لله تعالى.

٢٣ ـ قيام الحجة بالقرآن على الكافرين.

٢٤ ـ التناسُب بين آخر السورة وأولها في قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، مع قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، وفي قوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، مع قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١].

۞ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ توبيخَ المشركين على عدم شُكرهم نعم الله عليهم بالأنعام من الإبل والبقر والغنم، التي جعل لهم فيها أنواع المنافع من الأكل والشرب والركوب، وغير ذلك، ولم يَنته كفرُهم على عدم الشرك؛ بل اتخذوا من دونه آلهة يعبدونهم، ويحمُونهم؛ لأنها آلهة ضعيفة لا تدفع عن نفسها، ثم نهى اللهُ نبيَّه ﷺ أن يحزنه قولُهم فيه وفيما جاء به؛ لأن الله مِن ورائهم يعلم ما يسرون وما يعلنون.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ هذا عود إلى تقرير دلائل التوحيد، وتفرُّده تعالى بالخلق، مع تعداد النعم، وتقدم أن للمفسرين في مثل هذا التركيب ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ مذهبين:

الأول: أنه استفهام تقرير؛ أي: أليسوا قد شاهدوا ما خلقنا لهم من الأنعام؟ يعني: أنهم شاهدوا ذلك بأبصارهم، ولكنهم لم ينتفعوا بهذه الرؤية بأخذ العبرة والموعظة؛ فالرؤية على هذا المذهب واقعة.

الثاني: أنه استفهام إنكار وتوبيخ لهم على ترك الرؤية، فتكون الواو عاطفة على محذوف؛ أي: أعَمُوا ولم يَروا؟ فهو حثٌّ لهم على المشاهدة؛ فالرؤية ـ على هذا الوجه ـ لم تقع.

والموافق لسياق الآية هو المذهب الأول، فهو استفهام تقرير؛ فالله يقرِّر عباده بهذه الرؤية، ويرتب على هذا التقرير: الامتنان، وإيجاب الإيمان به، والشكر على نعمه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؛ أي: أوجدناه لأجلهم بقدرتنا من غير شريك ولا معين ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ هي الإبل والبقر والغنم، وإسناد العمل إلى الأيدي تأكيد لتفرُّده تعالى بخلق الأنعام، وليس المعنى أنه تعالى خلق الأنعام بيديه؛ لأن هذا التركيب لا يدل عليه؛ لأنه من قبيل إسناد الفعل إلى اليدين، وهو لا يُفيد اختصاص الفعل باليد، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠].

فالله لم يخلق الأنعام كما خلق آدم؛ فإنه تعالى قال عن آدم حين خاطب إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، ففرق بين الآيتين في الأسلوب؛ فهنا في سورة (يس) أسند الفعل إلى الأيدي، وذكَر اليدين بلفظ الجمع، وفي آية (ص) أسند تعالى الفعل إلى نفسه، وعدَّى الفعل إلى اليدين بالباء، وذكَر اليدين بلفظ التثنية، مما يدل على أنه تعالى خلق آدم بيديه حقيقة، ففيه فضيلة آدم عليه السلام على جميع المخلوقات، وقد غلِط من شبَّه آية (ص) بآية (يس)؛ ليتوصل بذلك إلى نفي خلق الله آدم بيديه، وذلك للفروق المتقدمة بين الآيتين.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾؛ أي: مالكون لهذه الأنعام، يتصرفون فيها كما يشاؤون على حكم الشرع، وخصَّ الأنعام بالذكر ـ والله أعلم ـ:

أولًا: لكثرة وجودها عندهم، فهي بمرأى منهم دائمًا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

ثانيًا: لكثرة منافعها.

ثالثًا: لما فيها من عجائب الخلق، وبدائع التكوين، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾؛ أي: جعلناها منقادة لهم، وهذا من تمام النعمة؛ فإن الإنسان قد يملك الشيء ولا يكون مسخَّرًا له، وانظر إلى الجمل الضخم كيف ينقاد للجارية الصغيرة ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾، (مِن) للتبعيض، والرَّكوب؛ أي: المركوب؛ كقولهم: حَلوب بمعنى: محلوب؛ أي: فمِن هذه الأنعام ما يركبونه ويحملون عليه في أسفارهم، وهو الإبل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾؛ أي: يأكلون منها، فـ (مِن) ابتدائية؛ لأن الأكل يكون من جميعها، بخلاف الركوب فهو مختص ببعضها، وقدَّم الركوب؛ لفضل متعلَّقه وهو الإبل؛ فهي أبدع صنعًا، وأعمُّ نفعًا، كما يشهد له قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

قوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾؛ أي: ولهم في هذه الأنعام منافع كثيرة غير الركوب والأكل؛ كالحرث والجلود والأصواف والأوبار والأشعار ﴿وَمَشَارِبُ﴾؛ أي: من ألبانها، جمع مَشرب، مصدر ميمي بمعنى المفعول؛ أي: المشروب، وجمع المشارب لتعدُّد ألبانها بتعدُّد أنواعها، وعطف المشارب على المنافع من عطف الخاص على العام؛ لأن المشارب من جملة المنافع، وللتنبيه على فضل المشارب.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ على عدم شكرهم لربهم، والفاء عاطفة على محذوف؛ أي: أَجهِلوا هذه النعم أو غفَلوا عنها فلا يشكرون المنعِم بها؟! فهذا الأسلوب أبلغ من الأمر؛ لأنه إنكار على الترك.

ولما وبَّخهم اللهُ على عدم الشكر زاد في ذمِّهم؛ فقال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾؛ أي: وعبدوا من دون الله آلهة باطلة، فلم يكتفوا بترك الشكر حتى أشركوا في إلٰهيته أصنامًا ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: راجين أن تنصرهم، وكيف تنصرهم وهي جمادات؟! قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾؛ أي: لا يستطيع الآلهةُ نصرَ عابديهم إذا أراد أحد بهم سوءًا ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾؛ أي: والحال أن المشركين جندٌ لآلهتهم يخدمونهم ويحمونهم وينصرونهم، كما قال قوم إبراهيم: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وهذا منتهى السَّفَه؛ لأن الشأن في الإلٰه أن يُدافع عمَّن يعبده.

وعبَّر عن الأصنام بضمير العقلاء؛ لأن المشركين يدعونها دعاء العاقل، وسمَّوها بأسماء العقلاء، فخوطبوا بما يعتقدون.

وبعد تقرير التوحيد خاطب اللهُ نبيَّه ﷺ مسلِّيًا له؛ فقال سبحانه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الفاء هي الفصيحة؛ أي: إذا كان هذا حالُهم في اتخاذهم الشركاء مع الله فلا يحزنك قولهم فيك: إنك شاعر، ولست برسول، ونحو ذلك، ثم استأنف الكلام ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: ما يسرونه وما يعلنونه من التكذيب والاستهزاء والعداوة، وسنجازيهم على ذلك، وذكر ما يعلنون مع أنه مفهوم من ذكر علمه تعالى بالسر؛ للتنبيه على كمال علمه تعالى، وشُموله لجميع المعلومات، وتقديم السر على الإعلان؛ لأن العلم به أدلُّ على كمال العلم.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ الحثُّ على التفكُّر في مخلوقات الله وآلائه.

٢ ـ أن الله خالق الأنعام لمصالح العباد.

٣ ـ إثبات اليدين لله تعالى.

٤ ـ نسبة العمل إلى الله؛ كالفعل.

٥ ـ الفرق بين خلق الله لآدم بيديه، وخلق الله الأنعام.

٦ ـ الفروق اللفظية بين هذه الآية في خلق الأنعام وقوله سبحانه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صٓ: ٧٥] في خلق آدم.

٧ ـ الفرق المعنوي بين الآيتين وهو ثمرة هذه الفروق، وهو أن آية (يس) لا تدل على أن الله خلق الأنعام بيديه، وآية (ص) تدل على أنه تعالى خلق آدم بيديه حقيقة، ولهذا كان لآدم هذه الفضيلة التي اختُصَّ بها من بين المخلوقات.

٨ ـ أن الأنعام أموال تُملَك، فتجري فيها أحكام الأموال من جواز التصرُّف، ووجوب الزكاة فيها.

٩ ـ أن من تمام الإنعام بالأنعام تذليلَها، مما يمكِّن من الانتفاع بها.

١٠ ـ التذكير بعجز الإنسان عن التصرُّف بهذه الأنعام لولا تذليل الله إيَّاها لهم.

١١ ـ أنَّ من المنافع ما هو عام في الأنعام، وهو الأكل، ومنها ما يختص بالإبل، وهو الركوب.

١٢ ـ حِلُّ ألبان الأنعام كلِّها؛ لقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾.

١٣ ـ أن من طرق البيان عطف العام على الخاص.

١٤ ـ الحثُّ على شكر المنعم بعد التذكير بإنعامه.

١٥ ـ الإنكار على من لم يشكر ربَّه.

١٦ ـ أن المشركين جمعوا بين نوعي الكفر: كفر النعم، والكفر بالله بعبادة غيره.

١٧ ـ أن آلهة المشركين ضعيفة عاجزة عن الدفع عن نفسها.

١٨ ـ جواز تسمية معبودات المشركين آلهة، لكنها آلهة باطلة.

١٩ ـ أنَّ مِن سَفَه المشركين أن يطلبوا النصر من عاجز يحتاج إلى من ينصره.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن قوم إبراهيم: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

٢١ ـ تسلية الله لنبيِّه ﷺ بنهيه عن الحزن لما يقوله المشركون.

٢٢ ـ علم الله بما يُسِر العباد وما يعلنون.

٢٣ ـ تهديد الله لأعداء الرسول لما يقولون مما يؤذي الرسول ﷺ.

٢٤ ـ تسلية أتباع الرسول في الدعوة عمَّا يقوله لهم أعداؤهم.

﴿ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن خصومة الإنسان الكافر بالبعث لربه القدير، وتوبيخَه على هذا الجحد، وذكرَ شُبهته في هذا الإنكار، والردَّ عليه بجملة من الأدلة؛ كالخلق الأول، وخلق السماوات والأرض، وخلق النار من الشجر الأخضر، وخُتمت الآياتُ بالإخبار عن نفاذ أمره تعالى، وسرعة تحقُّق مراده، وبتنزيهه تعالى عن ظن المكذبين له بجحد البعث، وبالإخبار برجوع العباد إليه ببعثهم يوم القيامة، وفي ذلك تأكيد لإبطال دعوى الكاذبين المكذبين.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هذا من دلائل الربوبية، فهو عطف على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [٧١]، وما بينهما اعتراض تضمَّن ذمَّ المشركين بشركهم، وتسلية الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الإنسان في السور المكية هو الكافر، هذا هو الأكثر؛ أي: أولم ير هذا الكافر بالبعث أنا أوجدناه بعد العدم من نطفة مهينة؟ والاستفهام للتقرير، على ما تقدم في نظيره في الآية السابقة، فهو تقرير وإلزام من الله لهذا الكافر المكذب، وحملٌ له على الإقرار بأن الذي خلقه من النطفة قادر على بعثه ومجازاته ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: شديد الخصومة لربه بالباطل.

و(أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ للعهد الذهني، فالإنسان المذكور واحدُ الكفار المعروفين في ذلك العهد، وقد ذكر المفسرون عدة أسماء، ولم يثبت بذلك خبر مسند صحيح، ولا مانع أن يتكلم بمقولة إنكار البعث أكثر من واحد من المشركين، فتعم الآية كلَّ منكر للبعث، فتكون (أل) للاستغراق العُرفي.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾؛ أي: وساق هذا الإنسانُ الخصيمُ لقدرتنا على البعث مثلًا، وهو العظم البالي ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ هذه جملة معترضة تضمَّنت الردَّ على الشُّبهة قبل ذكرها؛ أي: تركَ هذا الخصيمُ التأملَ في ابتداء خلقنا إياه من النطفة، فهو أغرب من إحياء العظم البالي ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؛ أي: رميمة مُفتَّتة، والاستفهام للاستبعاد والإنكار.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل ـ أيها الرسول ـ مجيبًا له ﴿يُحْيِيهَا﴾؛ أي: يحيي هذه العظام ﴿ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ﴾؛ أي: أوجدها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: في أول مرة حين لم يسبق لها وجود، وهذا من الاستدلال بالخلق الأول على البعث، فإنَّ من قدِر على ابتداء خلق الأشياء بعد أن لم تكن موجودة، فهو على إعادتها أقدر، وهذا في نظر العقل، وأما بالنسبة

لقدرة الله فليس في قدرته تعالى تفاوت، فالكل هيِّنٌ عليه؛ لأنه يقول للشيء: كن فيكون.

قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: الله جلَّ جلاله ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: كامل العلم بكل ما خلق تعالى، ومن ذلك علمه سبحانه بالإنسان بعد موته، وأين ذهبت أجزاؤه وعظامه في الأرض.

ثم انتقل من الدليل العقلي إلى الحسي الذي لا يمارَى فيه؛ فإنه أدلُّ على كمال القدرة؛ فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾؛ أي: الذي أخرج لكم من الشجر الرطب نارًا تقدحونها، وخصَّ الأخضر؛ لأن استخراج النار منه أظهر في الدلالة على القدرة، والمراد بالشجر هنا شجر المَرْخ وشجر العَفار، فإنهم كانوا يأخذون من هاتين الشجرتين غُصنين بمقدار السواك، فيُسحق المَرْخُ على العَفار فتخرج النار، وقيل: يُضرب أحدُهما بالآخر فتنقدح من ذلك شرارة النار، فتسقط على ما جُعل تحتها من أعواد فتشتعل.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾؛ أي: توقدون النار، وهذا من أغرب الأمور أن يخرج شيءٌ من غير جنسه بل من ضده؛ إذ يخرج اليابس الحار من الرطب البارد، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما يريد من إحياء الموتى وغير ذلك، لا يمنعه منه مانع.

ثم نبههم على ما هو أعظم من ذلك، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: على كِبَرهما وعِظم ما فيهما من العجائب والبدائع ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾؛ أي: بقادر على أن يخلق أناسًا آخرين، والاستفهام للتقرير، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: بلى هو قادر على ذلك، فمن قدِر على خلق السماوات والأرض وخلق أناس آخرين، فهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم من القبور، والباء في ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ لتأكيد

ثبوت القدرة ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾؛ أي: الخلَّاق لجميع المخلوقات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: المحيطُ علمُه بكل شيء، وخصَّ هذين الاسمين الكريمين بالذكر؛ لأن مَرَدَّ البعث إلى كمال القدرة وكمال العلم.

ثم أكد شُمول قدرته تعالى لكل شيء؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾؛ أي: إنما كلامه تعالى ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: إذا أراد إيجاد شيء، ومن ذلك بعث الناس ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: فيوجد ذلك الشيء في الحال، كما تدل عليه الفاء في ﴿فَيَكُونُ﴾ التي هي للعطف والتعقيب، وهذا أمرٌ كونيٌّ يستتبع حصول المراد كونُه، والتعبير بالمضارع ﴿فَيَكُونُ﴾ مكان الماضي لاستحضار الحال المستقبلة.

ولما كان كلُّ ما مضى من السورة إلى هنا دالًّا على كمال أوصافه تعالى وتنزُّهه عن كل نقص وعيب؛ قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾؛ أي: إذا عُلم ما تقدم من صفات كماله تعالى، فتنزيهًا لربنا ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: مِلْكُ كلِّ شيء مِلْكًا تامًّا، فلا شريك له، وهو المتصرف فيه وحده، وهذا تسبيح من الله لنفسه، أو إرشاد للعباد أن يسبحوه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: إليه ـ لا إلى غيره ـ ترجعون للحساب والجزاء، وذكر ابن القيم رحمه الله أن هذه الآيات دلت على إثبات البعث من عشرة أوجه، فليُنظر تفصيلها في «إعلام الموقعين».

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ توبيخ الإنسان على غفلته عمَّا خُلق منه.

٢ ـ ذمُّ الإنسان الكافر لمخاصمته ربَّه باعتراضه على شرعه وتكذيبه لخبره.

٣ ـ ذمُّ الخصومة بالباطل.

٤ ـ أنَّ الله يُعلِّم نبيَّه ﷺ ما يرد به على المكذبين والمعارضين؛ لقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٥ ـ تذكير الإنسان بضعف أصله.

٦ ـ أن التكبُّر من الضعيف أقبح من غيره.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٨، ١٩].

٨ ـ الشُّبهة في إنكار البعث، وهي استبعاد إحياء عظام الإنسان بعد أن كانت رميمًا.

٩ ـ إثبات القياس.

١٠ ـ أنَّ من أبلغ الحجج في المناظرة الاحتجاجَ على الخصم بما يُقِر به.

١١ ـ حشد الأدلة على إبطال الشُّبهة، ومَدارها على إثبات علم الله وقدرته.

١٢ ـ قوة الأدلة على بُطلان شُبهة منكري البعث.

١٣ ـ أن أشهر الأدلة على إمكان البعث قدرة الله على النشأة الأولى.

١٤ ـ أن العظم تحلُّه الحياة النَّمائية، لا الحياة الحيوانية التي خاصِّيَّتها الحسُّ والحركة الإراديَّة.

١٥ ـ إثبات عموم علم الله تعالى.

١٦ ـ أنَّ مِن أدلة إمكان البعث خلقه تعالى السماوات والأرض.

١٧ ـ الردُّ على الفلاسفة القائلين بقِدم الأفلاك.

١٨ ـ الامتنان بإخراج النار من الشجر الأخضر.

١٩ ـ أنَّ من عجائب قدرة الله إخراجَ الشيء من ضده.

٢٠ ـ إثبات الجَعْل الكوني.

٢١ ـ اشتمال القرآن على الأدلة العقلية.

٢٢ ـ إثبات الاسمين الكريمين لله تعالى: الخلَّاق والعليم، وما تضمَّناه من صِفَتي الخلق والعلم.

٢٣ ـ إثبات الأمر الكوني.

٢٤ ـ إثبات الإرادة.

٢٥ ـ إثبات القول لله.

٢٦ ـ أن خلقه تعالى للأشياء بأمره ومشيئته.

٢٧ ـ أنه لا فرق في ذلك بين كبير وصغير، وقليل وكثير.

٢٨ ـ سرعة انقياد المخلوقات لأمر الله ومشيئته.

٢٩ ـ أنَّ مِن أدلة البعث عموم قدرة الله.

٣٠ ـ تنزيه الله نفسه عمَّا يقول الجاهلون والمفترون.

٣١ ـ إثبات عموم ملكه تعالى لكل شيء.

٣٢ ـ إثبات اليد لله.

٣٣ ـ رجوع الخلق إليه بالبعث يوم القيامة.

٣٤ ـ الإرشاد إلى الاستعداد لذلك اللقاء بالإيمان والعمل الصالح.

سورة الصافات

سورة الصافات مكيَّة، وعدد آياتها مئة واثنتان وثمانون آية، وقد افتُتحت بالقَسَم من الله ببعض أصناف الملائكة على التوحيد، مع ذكر بعض أدلته.

وتضمَّنت السورةُ تقريرَ التوحيد بنوعيه: الإلٰهية والربوبية، وذِكرَ بعض الأدلة على ذلك، وذِكرَ الحِكَم في خلق الكواكب، وذِكرَ بعض الأدلة على قدرته تعالى على البعث، ثم العجب من إنكار المشركين له، وإصرارِهم على التكذيب، وعدمِ انتفاعهم بالآيات، وذِكرَ شُبهتهم في استبعاد البعث، وذِكرَ حالهم ومقالهم عند النفخ في الصور النفخة الثانية، وما يصيرون إليه من عذاب الجحيم، وسؤالَهم وتساؤلَهم، وتحاوُرَ المستضعفين والمستكبرين، وأنهم جميعًا في العذاب مشتركون، وذِكرَ سبب هذا المصير، وذِكرَ مآل عباد الله المخلَصين، وهي جنات النعيم، وذِكرَ بعض أنواع النعيم.

وتضمَّنت السورةُ ذِكرَ تساؤل أهل الجنة عن حالهم في الدنيا، وذِكرَ أحدهم قرينًا له من المشركين، واطلاعَه عليه في سواء الجحيم، وذِكرَ موازنة بين مصير عباد الله المخلَصين والمشركين، وصفة عذاب الظالمين في الجحيم من أكل الزقوم وشرب الحميم، وذِكرَ غلبة الضلال على البشرية، وعموم الرسالة، وذكرَ دعاء نوح عليه السلام وإجابة الله له ونجاته والسلام عليه وإغراق قومه، وذِكرَ خليل الله إبراهيم ودعوته لقومه، وتحطيمه لآلهتهم، وإلقائهم له في النار، وكيدهم له، وإبطال كيدهم،

وذكر هجرته، ورؤياه ذبح ولده إسماعيل، واستسلامهما لأمر الله، وفداء الله لإسماعيل بالذِّبح العظيم، ثم بُشراه بإسحاق نبيًّا، وذِكرَ منَّة الله على موسى وهارون بالنبوة والرسالة والكتاب، والنجاة من فرعون وقومه ومن الغرق، وذِكرَ إلياس ودعوته لقومه، وذِكرَ لوط ونجاته وأهله، وذِكرَ يونس والتقام الحوت له وإنجاء الله له، وإرساله لقومه مرة أخرى.

وتضمَّنت السورةُ توبيخَ المشركين على نسبة الولد، واختيارهم لله الصنفَ الذي لا يحبونه لأنفسهم، وذِكرَ بعض جهالات المشركين وضلالاتهم، وذِكرَ عجز المشركين عن صدِّ مَن أراد اللهُ هدايته، وذِكرَ قول الملائكة منزِّهين لله عمَّا يصفه به المشركون، ومبكِّتين للمشركين بعجزهم عن إضلال مَن أراد اللهُ هدايته، ومتمدِّحين بعبوديتهم لله، مصطفِّين ومصلِّين.

ثم عاد سياقُ الكلام إلى ذكر بعض أقوال المشركين من الدعاوى الكاذبة مع تهديدهم على كفرهم، ثم ذكر تعالى وعده لرسله وجنده بالنصر والغلبة، ثم أمر اللهُ نبيَّه بالإعراض عن المكذِّبين إلى حين، وأمره تعالى بإنظارهم مع تهديد الله لهم، وتوبيخهم على استعجالهم بعذاب الله، وأخبر بسوء حالهم إذا نزل بهم.

ثم خُتمت السورةُ بتسلية سيد المرسلين ﷺ، وتهديد المكذبين، والسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

فتبيَّن ممَّا تقدم أن هذه السورة كغيرها من السور المكيَّة التي مَدار آياتها على الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوَّة واليوم الآخر.

فمن ذلك في التوحيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [٤] إلى قوله: ﴿...عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [٩]، وقوله في المشركين: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقوله تعالى عن إبراهيم لأبيه وقومه: ﴿...مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٦]، وقوله عن إلياس: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [١٤٩] إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [١٥٩].

وفي النبوة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ [٧٢] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [١٣٩] وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧١] إلى قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [١٨١].

وفي اليوم الآخر قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [١١] إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ القَسَمَ من الله بثلاثة أصناف من الملائكة: الصافات والزاجرات والتاليات، على أن الإلٰه واحد، وهو ربُّ السماوات والأرض، وربُّ المشارق، ثم ذكر بعض حِكمه تعالى في خلق الكواكب، وهي زينة السماء وحفظها من كل شيطان متمرِّد، وأخبر أنها محروسة من الشَّياطين بالشُّهب التي يُقذفون بها؛ دَحْرًا لهم وتعذيبًا، وأخبر أن مسترق السمع قد يخطف الكلمة، فيتبعه الشهابُ فيدركه قبل أن يلقي الكلمة إلى مَن بعده أو بعد ذلك، كما جاء في الحديث[1].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ الصافات هي الملائكة، جمع صافَّة، والصافَّة جمع صافٍّ، فالصافات جمع الجمع، فالله يُقسِم بجماعات من الملائكة يصفُّون في السماء عند ربهم صفوفًا، يصلون له ركَّعًا وسجودًا، وقد جاء تفسيرُ هذا الصف في قوله ﷺ: «**ألا تصفُّون كما تصف الملائكة**

---

(١) رواه البخاري (٤٥٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

عند ربها؟»، فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصفُّ الملائكة عند ربها؟ قال: **«يُتِمُّون الصفوف الأول، ويتراصُّون في الصف»**[١].

قوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ وهذا قَسَم آخر من الله بصنف آخر من الملائكة، وهم الذين يزجرون السحاب ويسوقونه إلى حيث يريد الله نزوله، ويزجرون الشياطين عن استراق السمع، ويزجرون الناس عن المعاصي، وغير ذلك مما أُمروا بزجره، و﴿صَفًّا﴾ و﴿زَجْرًا﴾ مصدران لتأكيد الوصف.

قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ وهذا قَسَم ثالث بصنف آخر من الملائكة، وهم التالون للذكر؛ أي: آيات الله ووحيه المنزل، ومنه القرآن، فتتلوه الملائكةُ تعبُّدًا وتلذُّذًا، وتتلوه على الأنبياء. فالله يُقسم بهذه الأصناف من الملائكةُ في حال قيامها بهذه الأعمال من الصف والزجر والتلاوة، والعطف بالفاء لإفادة التَّرَقِّي في الفضل؛ أي: للدلالة على تفاضُلهم بتفاضُل أعمالهم.

وإقسام الله بهذه الجماعات من الملائكة فيه تشريف لهم، وإشادة بذكر أعمالهم الكريمة، فهم العباد المكرَمون، الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون، والقَسَم من طرق تأكيد الكلام، وفيه تنبيه على فضيلة المقسَم به، وعِظم شأن المقسَم عليه.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جواب القَسَم، وهو المقسَم عليه؛ أي: إن معبودكم الحق ـ أيها الناس ـ لواحد، وهو الله جلَّ وعلا، لا شريك له، فأخلصوا له العبادة.

---

(١) رواه مسلم (٤٣٠) عن جابر بن سمُرة ﷺ.

والتناسُب بين القَسَم وجوابه ظاهر، فجواب القَسَم هو التوحيد، والمقسَم به هم الملائكة، وهم من خيرة عباد الله العابدين الموحدين، المبلِّغين للتوحيد.

ثم ذكر تعالى الدليل على التوحيد واستحقاقه للعبادة، وهو ربوبيته لجميع المخلوقات؛ فقال سبحانه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: خالقُهما ومالكُهما ومدبِّرهما وما فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من جميع المخلوقات من أحياء وجمادات؛ أي: ربُّ العالم كله ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾؛ أي: خالق المشارق كلها على هذا النظام البديع، والمشارق جمع مَشرق، وهو موضع شروق الشمس والقمر والنجوم، ولم يذكر المغارب؛ لدلالة المشارق عليه، ولأن المصالح المتعلقة بطلوعها أكثر من المتعلقة بغروبها؛ إذ الضوء نعمة عظيمة، وإعادة ﴿رَبُّ﴾ مع المشارق لظهور آثار ربوبيته تعالى فيها.

ثم نبَّه تعالى على عجائب مصنوعاته في السماء بطريق الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: أقرب السماوات إلى الناس، فالدنيا مؤنث الأدنى؛ أي: القُربى، وخصَّ هذه السماء بالذكر؛ لأنها هي المزيَّنة ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ الكواكب عطف بيان؛ أي: بزينة هي الكواكب، وهي النجوم التي يراها أهلُ الأرض متلألئة كالجواهر.

قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾؛ أي: وحفظنا السماء حفظًا محكَمًا بالشُّهب ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾؛ أي: من كل شيطان متمرد خارج عن طاعة الله.

تضمَّنت الآياتُ حكمتين من خلق النجوم: الأولى: أنها زينة للسماء. الثانية: حراستها من الشياطين. وثمَّ حكمة ثالثة، وهي أنها علامات يُهتدى بها، قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: حفظنا السماء من كل شيطان لئلا يستمعوا، بحذف اللام وأنْ، ولا يمتنع اجتماع حذفين، ومنه قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]؛ أي: لئلا، حُذفت لام التعليل ولا النافية.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾؛ أي: لا يتسمعون، أُدغمت التاءُ في السين بعد تسكينها وإبدالها سينًا، والتسمُّع تكلُّف السماع، سمع أو لم يسمع، وقد ضُمِّن معنى الإصغاء، فلذلك عُدِّي بـ ﴿إِلَى﴾ ومعنى الآية: أن الشياطين لا يستطيعون أن يصلوا إلى السماء بحيث يقدرون على سماع كلام الملائكة ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الملائكة، والملأ في الأصل هم السادة والأشراف، وسمِّيت الملائكة: الملأ الأعلى؛ لأنهم يسكنون السماوات ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾؛ أي: ويُرمَون بالشُّهب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾؛ أي: من جميع جوانب السماء إذا أرادوا الاقتراب من السماء.

قوله تعالى: ﴿دُحُورًا﴾ منصوب على المصدر؛ أي: يُطردون طردًا عنيفًا عن الاستماع، وهذا تأكيد لمعنى القذف ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي: ولأولئك الشياطين عذاب شديد دائم لا ينقطع، فهم يُرجمون في الدنيا بالشُّهب، ثم يعذَّبون في النار.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناء متصل من قوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾؛ أي: وحفظناها من كل شيطان إلا من خطف الخطفة، ويشهد له قولُه تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٧، ١٨].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾؛ أي: إلا من اختلس الكلمة على وجه السرعة؛ أي: من الكلام الذي يكون بين الملائكة مما يوحيه اللهُ إليهم من شرعه وقدره ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾؛ أي: فتبعه ولحقه ﴿شِهَابٌ﴾

هو قطعة عظيمة من النار تنفصل عن الكوكب، أو هو الكوكب نفسه ينقَضُّ لإحراق المسترق السمع ﴿ثَاقِبٌ﴾؛ أي: يثقب الظلام بضيائه، وقد ينجو الشيطانُ من الشهاب لأمر يريده الله، فيُلقي هذا الشيطان تلك الكلمة إلى الكاهن فيضيف إليها كذبًا كثيرًا، فيروج ذلك على الجهال، وقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسولَ الله ﷺ ناس عن الكهان، فقال: «**ليسوا بشيء**»، فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحيانًا بشيء فيكون حقًّا، فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الكلمة من الحق، يخطفها من الجني، فيَقُرُّها في أذن وليه، فيخلطون معها مئة كذبة**»[1].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات الملائكة، وأنهم أصناف باعتبار أعمالهم؛ فمنهم جماعة صافَّات في صلاتهم، ومنهم جماعة زاجرات، ومنهم التاليات للوحي والذكر.

٢ ـ أن الملائكة تصفُّ في صلاتها عند الله.

٣ ـ أنها تزجر السحاب وغيره مما أُمرت بزجره.

٤ ـ أن الملائكة تتلو كتب الله المنزلة كالقرآن؛ كجبريل عليه السلام، وتتلو الذِّكر تسبيحًا وتهليلًا وتكبيرًا.

٥ ـ تعظيم الملائكة للقرآن.

٦ ـ الرد على من زعم أن الملائكة لا تقرأ القرآن.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥، ٦].

---

(١) البخاري (٥٤٢٩)، ومسلم (٢٢٢٨).

٨ ـ فضل الملائكة لثناء الله عليهم وقَسَمِه بهم.

٩ ـ الرد على مَن زعم أن الملائكة لا عقول لهم، أو أنهم قوى الخير؛ أي: ليسوا ذواتًا قائمة بنفسها؛ لأن الله أخبر أنهم يصفُّون ويصلُّون ويتكلَّمون ويتلُون الذكر.

١٠ ـ أن الإلٰه واحد، وهو ربُّ السماوات والأرض.

١١ ـ بُطلان إلٰهية ما سوى الله، ممَّا يعبد من دون الله.

١٢ ـ عِظم شأن التوحيد.

١٣ ـ التناسُب بين المقسَم به والمقسَم عليه.

١٤ ـ إثبات الربوبية العامة.

١٥ ـ أن للمشارق خاصيةً في الدلالة على الربوبية.

١٦ ـ أن توحيد الربوبية دليل على توحيد الإلٰهية.

١٧ ـ أن بين السماوات والأرض مخلوقات عظيمة.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].

١٩ ـ أن الكواكب هي المصابيح التي زيَّن اللهُ بها السماء الدنيا.

٢٠ ـ أن من رحمة الله بعباده تزيين السماء الدنيا بالكواكب.

٢١ ـ حفظ الله السماء الدنيا من الشياطين بالكواكب.

٢٢ ـ منع الله الشياطين من استراق ما يُسمع من كلام الملائكة.

٢٣ ـ قذفهم بالشُّهب حين يريدون ذلك.

٢٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: ١٧، ١٨].

٢٥ ـ إثبات الشياطين، وأنهم أشياء قائمة بنفسها.

٢٦ ـ الردُّ على مَن زعم أن الشياطين قوى الشَّر.

٢٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

٢٨ ـ أنَّ مِن مسترقي السمع مَن يخطف الكلمة من كلام الملائكة، فيُتبَع بشهاب، فربما ألقَى الكلمة إلى مَن بعده، وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها.

٢٩ ـ التعليل لأفعال الله؛ لقوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾.

٣٠ ـ أن السماء الدنيا أدنى إلينا؛ أي: أقرب إلينا من السماوات الأخرى.

٣١ ـ أن الملائكة منزلهم السماوات.

ولما قرَّر سبحانه أدلة التوحيد، ذكر ما يدل على إثبات البعث والمعاد الأخروي؛ **فقال تعالى:**

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ تقريرَ المشركين المنكرين للبعث بما يعلمونه من قدرة الله على خلقهم من طين، وأن الرسول ﷺ يعجب من إنكارهم البعث مع هذا الإقرار، ومع إنكارهم البعث يسخرون بمن يدعوهم إلى الإيمان به، ويُعرِضون عن ذكر الله، وإذا ذكِّروا لا يذكُرون، وإذا رأوا آية من آيات الله الدالة على نبوة محمد ﷺ يسخرون، ويستبعدون البعث قائلين: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾، ثم جاء الردُّ عليهم: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾، فما هي إلا صيحة واحدة فإذا الأموات قيام من قبورهم ينظرون.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والفاء هي الفصيحة؛ أي: إذا علموا أنَّ الإله واحد فاستفتهم؛ أي: فاسأل المشركين المنكرين للبعث ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾؛ أي: خلقُهم بعد الموت لبعثهم، وليس المراد خلقَهم الأول؛ لأن الخصومة في شأن البعث؛ أي: هل خلقُهم أشقُّ وأصعبُ ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾؛ أي: أم من خلقنا من السماوات والأرض وما

بينهما من المخلوقات العظيمة؟ وجيء بـ ﴿مَّنْ﴾ تغليبًا للعقلاء على غيرهم، والاستفهام في قوله: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ إنكاريٌّ؛ أي: نفي أن يكون خلقُهم أشقَّ وأصعب، و﴿أَم﴾ متصلة عاطفة لطلب التعيين، وما بعدها مُعادل لما بعد الهمزة، والاستفهام في قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ تقريري؛ أي: حمل المخاطب على الإقرار؛ فإنهم لا بد أن يُقروا بأن خلقهم ليس أشدَّ من خلق هذه العوالم.

ثم بيَّن تعالى سهولةَ خلقهم الأول؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾؛ أي: خلقناهم من طين لَزِج، يلتصق بعضُه ببعض؛ لأنه تراب مخلوط بماء، يقال: لزَب الطينُ يلزُب لُزوبًا، من باب قعَد، والمراد آدم عليه السلام، الذي هو أصل البشر وأبوهم، فأُضيف الخلقُ من طين إليهم.

قوله سبحانه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وانتقال، فهو انتقال من التقرير إلى بيان حال الرسول ﷺ وحال المشركين؛ أي: بل عجبتَ ـ أيها الرسول ـ من إصرارهم على إنكار البعث مع قيام الأدلة عليه؟ ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾؛ أي: وهم يسخرون منك وممَّا دعوتهم إليه، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف (بَلْ عَجِبْتُ) بضم التاء، فيعود الضميرُ على الله ﷻ، فالله يعجَب من حالهم وتكذيبهم، وهو عجب حقيقي ثابت لله على ما يليق به سبحانه، كسائر صفاته التي أخبر بها عن نفسه؛ كالمحبة والرضا والغضب والفرح.

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾؛ أي: وإذا وُعِظوا بالمواعظ لا يتعظون، فقلوبهم قاسية، فهذا إعراضهم عن المسموع، ثم ذكر إعراضَهم عن المرئي؛ فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾؛ أي: وإذا رأوا آية من الآيات الدالة على قدرة الله، أو من آيات النبوة ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾؛ أي: يبالغون في السخرية والاستهزاء ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي:

وقالوا: ما هذا الذي جاءنا به محمد إلا سحر واضح.

قوله سبحانه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؛ أي: ويقولون: أإذا متنا وصرنا ترابًا وعظامًا نخرة، هل نُبعث إلى الحياة مرة أخرى؟! فالاستفهام في قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ للإنكار والاستبعاد والتعجُّب، والاستفهام الثاني وهو قولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ توكيد للإنكار الأول، وجمْعُهم بين التراب والعظام مبالغة منهم في تصوير الفَناء الذي يصيرون إليه، وتقديم التراب على العظام؛ لأنه أدلُّ على مرادهم؛ لأنه أبعدُ عن الحياة ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ استفهام آخر يتضمَّن الاستنكار والاستبعاد، فهو تأكيد ثالث للإنكار الأول، ومبالغة في الاستبعاد؛ أي: هل يُبعث آباؤنا الأولون وقد بَلِيَت أجسادُهم وصاروا ترابًا؟! إن ذلك لأشدُّ العجب.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾؛ أي: قل لهم ـ أيها الرسول ـ: نعم؛ تُبعثون جميعًا أنتم وآباؤكم ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم صاغرون أذلَّاء؛ أي: حين بعثكم ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ الفاء للتفريع على محذوف؛ أي: لا تستبعدوا ذلك وتظنوه عسيرًا علينا ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾؛ أي: القصة والشأن ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾؛ أي: صيحة، وهي نفخة البعث، وتنكير ﴿زَجْرَةٌ﴾ يدل على عِظمها، ووصفُها بواحدة تأكيدٌ لإفادة الوحدة؛ أي: واحدة لا أكثر من ذلك ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: ينظرون إلى ما حولهم وإلى ما حدث، وهذا النظر يدل على أنهم حَيُوا حياة كاملة، و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة فتدل على سرعة حصول ما بعدها، وهو حلول الحياة في جميع الموتى.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن النبيَّ ﷺ مأمور بمجادلة المكذبين.

٢ ـ مشروعية الاحتجاج على المنكرين للبعث بما يُقرون به من خلقهم الأول، ممَّا يكون حجة عليهم.

٣ ـ مشروعية المناظرة لأهل الباطل والاحتجاج عليهم.

٤ ـ اشتمال القرآن على الأدلة العقلية.

٥ ـ أن حكمَ الشيء حكمُ نظيره، وهو القياس.

٦ ـ إثبات صفة الخلق لله تعالى.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

٨ ـ أن خلق الإنسان الأول وهو آدم من طين لزِج.

٩ ـ أن إنكار المشركين للبعث مع إقرارهم بمبدأ خلقهم من دواعي العجب.

١٠ ـ إثبات العَجب لله، على قراءة ضم التاء في قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥].

١٢ ـ إصرار المشركين على الإنكار للبعث، حتى سَخِروا ممَّن يدعوهم إلى الإيمان به.

١٣ ـ أن السُّخرية بالأنبياء عادةُ أعداء الرسل.

١٤ ـ غلبة الغفلة عن ذكر الله على المشركين، حتى إنهم إذا ذكِّروا لا يذكرون.

١٥ ـ غرورهم بأنفسهم مع عظيم كفرهم وعتوِّهم، ولذا يسخرون من آيات الله.

١٦ ـ أن الدعاة إلى الله معرَّضون للسخرية من خصومهم، فعليهم أن يصبروا.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

١٨ ـ تشويه المشركين لدعوة الرسل بالألقاب القبيحة؛ لقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧].

٢٠ ـ تسمية أدلة الأنبياء آيات وبراهين وبيِّنات؛ لقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾، لا معجزات، كما يسمِّيها المتكلمون.

٢١ ـ شُبهة المشركين باستبعاد البعث، وهي أنهم يصيرون بعد الموت ترابًا وعظامًا.

٢٢ ـ الردُّ عليهم بالتحقير، وأن ما أنكروه واقع لا مَحالة.

٢٣ ـ تعليم الله نبيَّه ﷺ الردَّ على المكذبين؛ لقوله: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾.

٢٤ ـ أن بعث الأموات من القبور يسيرٌ على الله؛ فما هي إلا صيحة واحدة، فإذا الذين في القبور على ظهر الأرض ينظرون.

٢٥ ـ سرعة خروجهم من القبور بعد النفخ في الصور.

٢٦ ـ إثبات الصُّور ونفخة البعث.

ثم بيَّن تعالى ما يكون منهم في ذلك اليوم، وما يقال لهم؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عمَّا يقوله الكفار إذا بُعثوا، وما يُقال لهم، وأنهم يُحشرون بسَوقهم إلى ما أعدَّ لهم من عذاب الجحيم، وأنهم يوقفون ليُسألوا توبيخًا وتقريعًا، لكنهم مستسلمون لما حلَّ بهم من الذُّل والهوان.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾؛ أي: وقال المشركون: يا هلاكنا، والتعبير بالماضي عن المستقبل لتحقُّق وقوعه ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾؛ أي: هذا يوم الحساب والجزاء على الأعمال.

ثم تجيبهم الملائكة: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾؛ أي: يوم القضاء والحُكم بين الخلائق فيما اختلفوا فيه من أمور الدين، وفي الحقوق التي بينهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾

[النحل: ٣٨، ٣٩]، ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: كنتم تكذبون به في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الظاهر أن هذا خطاب من الله تعالى للملائكة الموكَّلين بحشر الناس؛ أي: اجمعوا الذين ظلموا، وهم المشركون، فكل مشرك ظالم؛ لأنه ظَلم نفسَه بالكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾؛ أي: وأشباههم في الشرك والضلال؛ أي: احشروهم جميعا ﴿...وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وما كانوا يعبدونه من جميع المعبودات، ويخرج من ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون؛ فالعموم في الآية مخصوص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، فهذه الآية بمنزلة الاستثناء من عموم ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ هذا من تمام كلام الله للملائكة؛ أي: دُلُّوهم وسُوقوهم إلى طريق جهنم، وفي حشر المعبودات مع عابديها تحقير لها، وتوبيخ لهم؛ إذْ عبدوا ما لا ينفع ولا يضر ﴿وَقِفُوهُمْ﴾؛ أي: احبسوهم ـ أولًا ـ في موقف الحساب، يقال: وقفتُ الدابة أقِفها وقْفًا إذا حبستَها، وهي موقوف، ولا تقل: أوقفتُها؛ فإنها لغة رديئة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾؛ أي: مسؤولون عن جميع أقوالهم وأعمالهم.

ثم يُقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ يُحتمل أن يكون هذا من كلام الله أو من كلام الملائكة؛ أي: ما لكم لا ينصر بعضُكم بعضًا، كما كنتم كذلك في الدنيا ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ بل حرف إضراب؛ لنفي التناصُر بينهم، وإثبات أنهم ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون عاجزون.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن هؤلاء الكفار يبعثون يوم القيامة وهم خائفون، فيدعون بالويل والثبور.

٢ ـ معرفة الكفار إذا بُعثوا ليوم القيامة الذي أخبرتهم بهم الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

٣ ـ أنه يُقال لهم تأكيدًا لما قالوا وتوبيخًا لهم على التكذيب به: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

٤ ـ أن من أسماء يوم القيامة يومَ الفصل ويومَ الدين.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النبأ: ١٧]، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

٦ ـ أن الشرك ظلم؛ بل هو أظلم الظلم؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

٧ ـ أمر الله الملائكة بحَشر الكفار إلى طريق الجحيم بسَوقهم إليها.

٨ ـ أن أصناف الكفار يُحشر بعضهم مع بعض، وإن كانوا زُمَرًا.

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

١٠ ـ أن الكفار يحشرون مع معبوداتهم إلى الجحيم.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

١٢ ـ إهانة المشركين بتعذيب معبوديهم.

١٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن الكفار عند بعثهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا﴾ [يس: ٥٢].

١٤ ـ أنه لا يجب اقتران العموم المخصَّص بمخصِّصه؛ فقد خُصَّ من هؤلاء الكفار المعذَّبين كلٌّ من عُبد من الملائكة والأنبياء والصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

١٥ ـ أن الكفَّار يوقَفون في طريقهم إلى الجحيم؛ ليُسألوا سؤال تقريع وتحقير: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

١٦ ـ ذُلُّهم واستسلامهم، ضدَّ ما كانوا عليه في الدنيا من الغرور والاستكبار، نعوذ بالله من النار.

ثم أخبر تعالى عمَّا سيكون بينهم من التخاصُم؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن بعض أحوال الكفار يوم القيامة، وهو إقبال بعضهم على بعض: الأتباع والمتبوعين؛ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: أي: يتخاصمون ويتلاومون، فيلوم المستضعفون المستكبرين على إغوائهم، ويسألونهم: هل سيُغنون عنهم شيئًا من العذاب؟! وهو معنى قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: عن طريق الحق والخير لتصدُّونا عنه، فيردُّ المستكبرون: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولم يكن لنا سلطان عليكم؛ بل أنتم الذين طغيتم؛ لذلك حقَّ علينا جميعًا قولُ ربنا، وسنذوق العذاب، نعم؛ قد أغويناكم بأن دعوناكم فاستجبتم وما أجبرناكم، كما قال إمامهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ثم أخبر تعالى أن الأتباع والمتبوعين يشتركون في العذاب، وهكذا يفعل الله بالمجرمين.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي: سؤال تخاصُم وتوبيخ، فانقلبت صداقتُهم في الدنيا إلى عداوة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ثم بيَّن مضمون التساؤل؛ فقال سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال الأتباعُ للرؤساء المتبوعين ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾؛ أي: في الدنيا ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: تأتوننا عن طريق الخير والحق، فتزيِّنون لنا الكفرَ فنحسبه حقًّا، وتنفِّروننا عن الإسلام فنبغضه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١].

وأجابهم الرؤساءُ بخمسة أجوبة في هذه الآيات من هذه السورة:

الجواب الأول: ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال الرؤساءُ للأتباع: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وإبطال لما ادَّعاه التابعون؛ أي: لم نُضِلَّكم بل أنتم الذين آثرتُم الكفر، وبقيتُم عليه راضين به، كما قال تعالى مخبرًا عن الرؤساء قولهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢].

الجواب الثاني: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۖ﴾؛ أي: وما كان لنا عليكم من حجَّة صحيحة نصدُّكم بها عن الإيمان، وذهب بعضُ المفسرين إلى تفسير السلطان بالقوة والقهر، وليس بظاهر؛ لأن من المعلوم أن للمستكبرين على الضعفاء قوة يتسلطون بها عليهم، ولهذا فتفسير السلطان بالحجة أولى، وهو اختيار ابن جرير[1]، وابن كثير[2].

الجواب الثالث: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾؛ أي: شأنكم الطغيان، وهو مجاوزة الحد في الشر والفساد، فأنتم أشرار.

الجواب الرابع: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾؛ أي: فثبت علينا جميعًا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾؛ أي: حكم الله وقضاؤه، وهو أن كلَّ الكفار معذَّبون في النار،

---

(١) «جامع البيان» (١٩/٥٢٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٧/١١).

ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ لم يذكر المَذُوق لوضوحه؛ أي: لذائقو العذاب في النار.

الجواب الخامس: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾؛ أي: فدعوناكم إلى الغيِّ لأنَّنا أهل غيٍّ؛ أي: فأحببنا أن تكونوا مثلنا في الغواية، ولكنها ليست دعوة إكراه وإلجاء؛ أي: فأطعتمونا باختياركم؛ فلا يُعارض هذا ما تقدم من قولهم: وما كان لنا عليكم من سلطان.

ثم أخبر اللهُ عن مصيرهم المحتوم؛ فقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: الأتباع والمتبوعون جميعًا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ أي: كما كانوا مشتركين في الغَيِّ والكفر فهم مشتركون في العذاب ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ ذلك الفعل وهو تعذيب الكفار ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: بكل مجرم منهم ومن غيرهم، والمجرم في كلام الله هو الكافر.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ تلاوُم الكفار من الأتباع والمتبوعين.

٢ ـ أن هذا التلاوُم والتخاصُم قبل دخولهم النار.

٣ ـ تبرُّؤ المتبوعين من الأتباع.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦].

٥ ـ أن الكفار كانوا يصدُّون الأتباع المستضعفين عن قبول الحق واتباعه.

٦ ـ أن المستضعفين لم يُجبرهم المستكبرون على الكفر؛ بل أمروهم فأطاعوهم.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ الآيات [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

٨ ـ إقرار الكفَّار بربوبية الله؛ لقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾.

٩ ـ إقرارهم بكلام الله؛ لقولهم: ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾.

١٠ ـ استيقانهم العذاب في ذلك المقام.

١١ ـ أن المستكبرين هم الأصل في الغواية والضلال، والمستضعفون تبعٌ لهم في الغواية بطاعتهم لهم.

١٢ ـ إضافة الفعل إلى سببه؛ لقوله: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾؛ فلم يجعلوهم غاوين؛ بل كانوا سببًا في غوايتهم.

١٣ ـ أن الإيمان الراسخ يعصم من التأثر بالباطل.

١٤ ـ التحذير من مصاحبة أهل الغواية.

١٥ ـ أن منتهى الجميع العذابُ الذي هم فيه مشتركون.

١٦ ـ إهانة المستكبرين بجمْعهم في العذاب مع المستضعفين الأتباع.

١٧ ـ أنه لا يُغني أحدٌ منهم عن أحد.

١٨ ـ إضافة الفعل إلى الله؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ﴾، وشواهده كثيرة.

١٩ ـ إثبات قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى.

٢٠ ـ وصف الأتباع والمتبوعين بالإجرام.

٢١ ـ أن سبب عذابهم إجرامهم.

ولما ذكر تعالى عذاب المجرمين أخبر عن سبب ما استحقُّوا به العذاب؛ **فقال سبحانه:**

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عمَّا قابل به المشركون دعوةَ الرسول ﷺ إلى التوحيد، وهو الاستكبار والطعن في الرسول ﷺ، وتضمَّنت تنزيهَ الله نبيَّه عن مطاعن المكذبين، وتهديدَ المشركين بالعذاب الأليم، وأن المكلفين لا يُجزون إلا بأعمالهم، إلا عباد الله المخلصين؛ فإنهم يُثابون بما هو أعظم من أعمالهم، وإن كانت أعمالُهم سببًا في ذلك، وتفصيلَ ثواب المخلَصين في جنات النعيم.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ﴾؛ أي: إن هؤلاء المجرمين كانوا في الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: إذا قيل لهم قولوا: لا إلٰه إلا الله، يأبون ذلك تكبُّرًا وجَحدًا، فلا ينطقون بهذه الكلمة؛ لأنهم يكفرون بمعناها، وهو أنه لا معبود بحق إلا الله ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ

﴿ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾؛ أي: ويقولون: أنترك عبادة آلهتنا لأجل شاعر مجنون لا يعرف ما يقول؟ يعنون به النبيَّ ﷺ، والاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجُّب، جمعوا بين إنكار الوحدانية وتكذيب الرسالة، وفي جمعهم بين شاعر ومجنون دليل على تخبُّطهم وتناقُضهم؛ لأن الشاعر لديه طبع وقريحة، ومعرفة في تصريف القول، والمجنون يَهذي فلا يعي ما يقول، إلا أن يكون مرادهم أن الشاعر كذوب في كثير من أحواله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٦]، ويقال: أعذب الشعر أكذبه.

ويرد اللهُ عليهم بتكذيبهم منزِّهًا نبيَّه عن قيلهم؛ فيقول سبحانه: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾، ﴿بَلْ﴾ إضراب إبطالي لكلامهم؛ أي: ليس الأمر كما تزعمون؛ بل جاء بالحق في كل ما يخبر به، وكل ما يأمر به ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: صدَّق المرسلين من قبله؛ لأنه جاء بمثل ما جاؤوا به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال سبحانه: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣]، فكيف تقولون عنه: شاعر مجنون؟!

ثم يتوعَّدهم اللهُ بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾؛ أي: إنكم لذائقو العذاب المؤلم لا مَحالة، والالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إلى خطابهم لمزيد الغضب عليهم ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ليس هذا إلا جزاءً لأعمالكم السيئة، ولا يظلم اللهُ أحدًا من خلقه.

ولما ذكر اللهُ حالَ المكذبين الفجَّار وما يَلقون من التوبيخ والعذاب، ذكر حال المؤمنين الأبرار وما يُجزون به من النعيم؛ فقال سبحانه:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء منقطع؛ لأن عباد الله هؤلاء ليسوا من جنس الكفرة المخاطبين، المعنى: لكن عباد الله المخلَصين، وهم الذين أخلصهم اللهُ لنفسه، واختارهم لولايته وهم المؤمنون ـ وهذا على قراءة فتح اللام ـ لا يذوقون العذاب؛ لأنهم أهل إيمان وطاعة، ويجازيهم اللهُ بأضعاف أعمالهم، ومِن دلائل شرفهم وحفاوة الله بهم: أن الله وصفهم بالعبودية، وأضافهم إلى نفسه المقدَّسة.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب (**المُخْلِصِينَ**) بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا دينهم لله، فلم يُريدوا به غير الله تعالى.

ثم ذكر اللهُ جزاءهم؛ فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: عباد الله المخلصون، والإشارة إليهم بالبعيد؛ لعُلوِّ منزلتهم، وهو مبتدأ، خبره: ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ أي: لهم رزق معلوم المقدار والنوع والمتعة، وأبهمه للتشويق، ثم فسَّره بذكر أنواع النعيم فقال سبحانه: ﴿فَوَٰكِهُ﴾؛ أي: فواكه كثيرة من كل نوع، يتفكهون بها ويتلذَّذون؛ لأن الأكل هناك ليس للتقوُّت ودفع الجوع ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾؛ أي: وهم مع ذلك مكرَمون بأنواع الكرامات.

ولما ذكر مأكولهم ذكر مسكنهم وهيئة جلوسهم؛ فقال سبحانه: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: مستقرون ومكرَمون حال كونهم في جنات النعيم، وهذا من إضافة الموصوف إلى الصفة؛ أي: الجنات ذات النعيم، والنعيم هو كل ما يُتنعم به من مأكل ومشرب وغير ذلك، فلا بؤس في الجنة ولا شقاء، فلا شيء فيها غير النعيم، قال ﷺ: «**من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تَبلى ثيابُه، ولا يَفنى شبابُه**»[1]، قال ﷺ: «**ينادي مناد: إن لكم أن تَصِحوا فلا تَسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا**

(١) رواه مسلم (٢٨٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تَشِبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تَنعموا فلا تبأسوا أبدًا» فذلك قوله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣][1].

قوله سبحانه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جمع الجنات باعتبار درجاتها، تبعا لتفاوُت أهلها في أعمالهم.

قوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾؛ أي: هم على سُرر، جمع سرير، وهو ما يُقعد عليه ويُتكأ، والفرق بينه وبين الأريكة: أن الأريكة عليها ستائر مُرخاة من فوق، وهي الحَجَلة، فبينهما عموم وخصوص؛ فكلُّ أريكة سرير، وليس كلُّ سرير أريكة ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أي: متقابلين بوجوههم، ينظر بعضُهم إلى بعض، وهذا أتم للأنس، وأجمع للرؤية، وأيسر للتحدث، مع ما فيه من كمال الأدب.

ثم وصف شرابهم؛ فقال سبحانه: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾؛ أي: يدار عليهم في الجنة، والطائفون هم الولدان المخلدون ﴿بِكَأۡسٖ﴾؛ أي: خمر، وكلُّ كأس في القرآن هي الخمر ﴿مِّن مَّعِينٖ﴾؛ أي: من أنهار جارية على وجه أرض الجنة، من قولهم: مَعَن الماءُ إذا جرى وتسلسل، فمَعين فعيل بمعنى فاعل، ووصف الخمر بالمعين؛ لإفادة كثرتها في الجنة ﴿بَيۡضَآءَ﴾ في لونها، فهي مشرقة صافية ﴿لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾؛ أي: لذيذة جدًّا، حتى صارت كأنها اللذة نفسها ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾؛ أي: ليس فيها ما يغتال العقول من نوم أو سُكر أو صداع أو آفة تلحق بالبدن، كما في خمور الدنيا، كما قال الشاعر:

فما زالتِ الكأسُ تغتالُنا ... وتذهبُ بالأولِ الأولِ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٧) عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يقال: نُزِف الشَّارب إذا سَكِر وذهب عقلُه، ومثله أُنزف فهو مُنزَف؛ أي: ولا هم بسببها يَسكَرون، فـ (عن) للسببية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

ثم ذكر أزواجهم ووصفهن؛ فقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُمْ﴾ في الجنة ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: حابساتُ أبصارهنَّ على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم؛ أي: عفيفات ﴿عِينٌ﴾ جمع عَيناء، وهي المرأة الواسعة العين في جمال ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾؛ أي: كأنهنَّ بيضٌ مَصون لم تمسّه الأيدي، ووجه الشَّبَه حُسن اللون والاستتار؛ أي: فهن مع جمالهن لم يمسّهنَّ أحد قبل أزواجهن، كما قال سبحانه: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمٰن: ٥٦].

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أعظم مانع للمشركين من قبول التوحيد: الاستكبارُ والاحتقارُ للرسول ﷺ.

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [صٓ: ٥].

٣ ـ أن من أنواع الكفر: كفر الإباء والاستكبار.

٤ ـ أن من شروط ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الانقياد لما تقتضيه ظاهرًا وباطنًا.

٥ ـ بُطلان ألوهية ما سوى الله، وهذا مدلول النفي ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾.

٦ ـ وجوب إفراد الله بالإلٰهية، وهذا مدلول الإثبات ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ تكذيب المشركين بحقيقة الشهادتين.

٨ ـ الثناء من الله على رسوله ﷺ؛ لردِّه تعالى على الطاعنين في النبي ﷺ.

٩ ـ وجوب التصديق بجميع الرسل.

١٠ ـ تصديق الله قول المجرمين: ﴿لَذَآئِقُوا۟﴾ [الصافات: ٣١] بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾.

١١ ـ شدة عذاب النار، أعاذنا الله منها.

١٢ ـ أن عذاب الكفار بقدر كفرهم ومعاصيهم.

١٣ ـ إثبات الجزاء على الأعمال ثوابًا وعقابًا، وإثبات لازمه، وهو البعث.

١٤ ـ كمال عدل الله.

١٥ ـ الرد على الجبرية النافين لفعل العبد.

١٦ ـ أن القرآن مثاني، تثنَّى فيه المعاني؛ كالوعد والوعيد.

١٧ ـ إثبات العبودية الخاصة.

١٨ ـ أن مِن عباد الله مَن اختصه الله لنفسه.

١٩ ـ أن من أفضل صفات عباد الله الإخلاص، على قراءة كسر اللام في (**المُخْلِصِينَ**).

٢٠ ـ الترغيب في إخلاص العمل.

٢١ ـ أن حسنات المخلَصين تضاعف.

٢٢ ـ أن ما يُثابون به من أنواع النعيم فوق ما تقتضيه أعمالهم.

٢٣ ـ أن ثواب الله للمؤمنين في الجنة يسمَّى رزقًا.

٢٤ ـ أن ثواب الله للمؤمنين في الجنة إكرام من الله لهم.

٢٥ ـ تفسير الإكرام في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٧].

٢٦ ـ أن من أسماء الجنة: جنة النعيم.

٢٧ ـ أن من نعيم أهل الجنة: الاتكاء على السرر متقابلين.

٢٨ ـ أن أهل الجنة يلتقي بعضُهم ببعض ويتزاورون.

٢٩ ـ أن من شراب أهل الجنة: الخمر، يُطاف بها عليهم.

٣٠ ـ أن خمر الآخرة بيضاء.

٣١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

٣٢ ـ أن لأهل الجنة خَدمًا يطوفون عليهم، وهم الولدان المخلدون.

٣٣ ـ أن خمر الجنة بريئة من عيوب خمر الدنيا.

٣٤ ـ التعريض بذمِّ خمر الدنيا.

٣٥ ـ أن من نعيم أهل الجنة: الأزواج.

٣٦ ـ أن من صفات أزواج أهل الجنة: قصرَ طرفهنَّ على أزواجهن، وسعةَ عيونهن.

٣٧ ـ أن نظر المرأة إلى غير زوجها عيبٌ.

٣٨ ـ شَبه نساء الجنة باللؤلؤ والبيض المكنون.

٣٩ ـ أن من طرق البيان: التشبيه.

٤٠ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بأن الثواب والعذاب الموعود روحاني يتعلق بالأرواح، لا بالأبدان.

ولما وصف اللهُ مجالسهم، وما يتنعمون به من الطعام والشراب والمتعة بالأزواج، ذكر شيئًا من الحديث الذي يتجاذبونه فيما بينهم؛ **فقال سبحانه:**

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ
﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾
قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ
لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا
مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا
فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن إقبال أهل الجنة بعضهم على بعض؛ يتساءلون ويتذكرون بعض ما كانوا عليه في الدنيا، والإخبار عن بعض ما تذكروه، والحوار بين بعض مَن في الجنة وبعض مَن في النار، واغتباط المؤمن بما أنعم اللهُ به عليه مِن النجاة مِن العذاب، والفوز بالثواب.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أي: يسأل بعضُهم بعضًا عن أحوالهم في الدنيا، وهو تساؤل أُنس واعتراف بفضل الله، وكل واحد منهم سائل ومسؤول ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾؛ أي: كان له في الدنيا صاحب يجادله في إيمانه ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾؛ أي: يقول لي موبِّخًا ومنكرًا: هل أنت من المصدقين؟ أي: بالبعث، كما يدل عليه

قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾؛ أي: أإذا متنا وصرنا ترابًا وعظامًا نخِرة؟ والاستفهام للتعجُّب والتكذيب ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؛ أي: هل نحن محاسبون ومجزيون على أعمالنا؟! وهذا استفهام إنكاري آخر مؤكِّد لسابقه، يدل على شدة إنكاره؛ فإنه أنكر البعث أولًا ثم أنكر الجزاء.

ثم يطلب هذا القائل من إخوانه أهل الجنة الذين يحادثهم أن يطَّلعوا معه إلى النار، وهذا من حُسن الأدب مع الجلساء؛ ليشاركوه الرؤية، فيتذكروا نعمة الله عليهم جميعًا؛ إذْ وقاهم ما يوجب لهم العذاب ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ الاستفهام للعرض؛ أي: هل أنتم ناظرون معي إلى النار؛ لنرى حال ذلك القرين؟ ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: فرآه في وسط النار، ثم خاطبه بقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾؛ أي: واللهِ لقد قاربت أن تهلكني بإغوائك، وهذا القَسَم فيه تعجب وتبكيت، وشأن القَسَم بالتاء أنه كثيرًا ما يأتي فيما فيه غرابة، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]، وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

فعجب الرجلُ من كيد صاحبه له، ولهذا قال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾؛ أي: ولولا إنعام الله عليَّ بالهداية والثبات على الإيمان ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾؛ أي: لكنت من المحضرين معك في العذاب.

ومخاطبة هذا المؤمن وهو في الجنة لقرينه وهو في النار ولا يصل إليه من حرِّها شيء، كلُّ ذلك من أحوال الآخرة التي يجب الإيمان بها؛ ولا غرابة في وقوع ذلك؛ فإن الإنسان اليوم يرى على شاشة التلفاز الحرائق المشتعلة والبراكين المتفجرة بالنار، وهو في مكان بارد ومنزل آمن، وقد أرى اللهُ العبادَ في الدنيا ما يشهد لما أخبر به في الآخرة من التخاطُب والترائي مع التباعد العظيم.

ثم رجع المؤمنُ إلى محادثة جُلسائه بعد إتمام الكلام مع قرينه، فخاطبهم فرحًا بنعمة الله عليهم قائلًا لهم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ الاستفهام للتقرير والتعجُّب، والفاء عطف على محذوف تقديره: أنحن مخلَّدون منعَّمون؟ فما نحن بميتين بعد موتتنا الأولى التي كانت في الدنيا، كأنه يقول: أفيدوم لنا هذا النعيم؟ فهو لا يريد التثبت، وإنما مراده إظهار ابتهاجه وتقرير مَن حوله بذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ أي: ولسنا بمعذبين في النار، وذلك ما كنا نخافه في الدنيا ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ أي: دخولنا الجنة وخلودنا فيها ونجاتنا من العذاب ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: الفوز الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾؛ أي: لنيل مثل هذا الجزاء العظيم ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾؛ أي: فليعمل العاملون في الدنيا، فهو أحق ما أنفقت فيه الأعمار، وكل عمل لغيره فليس بشيء.

وجعل كثير من المفسرين قولَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ من تمام كلام المؤمن، ويحتمل أن يكون من كلام الله للتنويه بفضل هذ الجزاء؛ ويؤيده ما في القرآن من هذا المعنى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٦]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١].

▨ الفوائد والأحكام:

١ ـ التعارُف بين أهل الجنة.

٢ ـ تحدُّث بعضهم إلى بعض.

٣ ـ سؤال بعضهم بعضًا عمَّا يُهمهم العلم به.

٤ ـ تذكُّرهم بعضَ أحوالهم في الدنيا وقرنائهم.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور: ٢٥، ٢٦].

٦ ـ أن بعض مَن في الجنة قد يرى بعض مَن في النار، ويُسمِعه كلامه.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤].

٨ ـ اغتباط أهل الجنة بما أنعم اللهُ به عليهم.

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

١٠ ـ أن أهل الجنة لا يموتون.

١١ ـ الأمن من العذاب بعد دخول الجنة.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

١٣ ـ فرح أهل الجنة بالنجاة من العذاب، والفوز بالثواب.

١٤ ـ أن هذا هو الفوز العظيم.

١٥ ـ أن هذا هو الفوز الذي يستحق أن يعمل له العاملون، ولمثله لو كان له مثل، ولكن نعيم الجنة لا مثل له.

١٦ ـ أن أهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، ولأنهم لا ينصَبون.

١٧ ـ أن أعظم المنغِّصات للنعيم تذكُّر الموت.

١٨ ـ سَفَه من يؤثِر الدنيا على الآخرة، فلا يعمل إلا لها.

١٩ ـ جواز وصف المخلوق بالعِظم.

٢٠ ـ الردُّ على الصوفية الذي لا يعملون لرجاء الثواب، ولا خوف العقاب.

٢١ ـ أنه كلَّما كان المطلوب أعظم كان ما يستحقه من العمل أكثر.

٢٢ ـ جواز القَسَم لتأكيد الخبر في غير الدَّعاوى.

٢٣ ـ أن النجاة من العذاب إنما تكون بتوفيق الله للعبد وإنعامه عليه.

٢٤ ـ جواز أن يقول الإنسان: لولا فضل الله، ولولا نعمة الله لكان كذا وكذا؛ فإنه بمعنى: لولا الله.

٢٥ ـ التذكُّر لنعم الله، والقيام بشكرها.

٢٦ ـ أن النجاة من عذاب النار من أعظم نعم الله على العبد.

٢٧ ـ جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾.

٢٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩].

٢٩ ـ الردُّ على القدرية في قولهم: إن نجاة العبد بعمله لا بإنعام الله.

٣٠ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٣١ ـ خطر قرين السوء على مُجَالسه.

٣٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن الظالم: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٨].

٣٣ ـ الرد على الجبرية؛ لإضافة العمل إلى العاملين.

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ٦٨ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ٧٠ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٧١ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ٧٢ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٧٤﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الموازنةَ بين نُزُل المؤمنين في الجنة ونُزُل أهل النار، وأن بينهما أعظم تبايُن؛ فنُزُل أهل الجنة الفواكه والشراب اللذيذ، ونُزُل أهل النار شجرة الزقوم والشراب من الحميم، وتضمَّنت الإخبارَ عن الشجرة الملعونة؛ عن منبتها وطلعها، وأكلِ أهل النار منها، وشربِهم عليها الحميم، وأنَّ مستقرَّهم الجحيم، ثم التنبيه على سبب هذا العذاب الأليم، وهو اتباع الضالين من آبائهم، وأنَّه قد غلب الضلالُ على الأكثرين، وقد أقام اللهُ الحجة عليهم بالمنذِرين؛ فما أسوأ عاقبة المنذَرين الضَّالين، لكن عباد الله المخلصين على ضد حال الضالين من المنذَرين.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ هذا شُروع في ذكر ما أعد اللهُ للكفار في النار بعد ذكر ثواب المؤمنين، وذكر حوار الرجل

المؤمن مع قرينه وهو في النار، والنُّزُل ما يُقدم للضيف؛ أي: أذلك النعيم وما فيه من المآكل والمشارب اللذيذة والأزواج والأنس التام خير وأفضل أم شجرة الزقوم الملعونة؟! والاستفهام للتقرير؛ أي: تقرير المشركين بنفي خيرية شجرة الزقوم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: امتحانًا وابتلاءً للكافرين في الدنيا؛ لأنها خلاف المعهود، ولهذا فإنهم لما سمعوا بخبرها أنكروا، وقالوا: كيف تكون في النار شجرة، والنار تأكل الشجر؟! فكان ذلك زيادة في كفرهم ينالون به زيادة في العذاب.

ثم وصف اللهُ الشجرة بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: تنبت في قعر جهنم ﴿طَلْعُهَا﴾؛ أي: ثمرها وهو الزقوم ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ أي: لشدة قُبحه، وقد جرت عادة العرب أنهم يُشبِّهون كل قبيح الصورة بالشيطان وإن لم يروه؛ لأن له صورة بشعة في تخيُّلهم، ولهذا سمِّي هذا التشبيه بالتشبيه التخييلي؛ فهذه الشجرة قبيحة المنظر مرة الطعم، فهي متناهية في القُبح من جميع الوجوه، قال ﷺ: **«لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأمرَّت على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن هو طعامُه، وليس له طعامٌ غيرُه؟!»**[(١)].

قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: فإن الكفار لآكلون من هذه الشجرة ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾؛ أي: فمالئون منها بطونهم لشدة جوعهم، ثم يصيبهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]،

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣١٣٦) عن ابن عباس، قال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ورواه الترمذي (٢٥٨٥)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

والتأكيد بـ ﴿إن﴾ واللام في هذه الآية وما بعدها مناسب لمقام التهديد، ولأن الكفار منكرون ذلك، والسورة مكيَّة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على هذه الشجرة إذا شبعوا منها ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: لخلطًا من ماء حار مُتَناه في الحرارة؛ أي: فيَختلط بالمأكول من الشجرة، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾؛ أي: مصيرهم بعد المأكل والمشرب ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾؛ أي: إلى النار، فهم في عذاب دائم، وينتقلون من عذاب إلى عذاب، وأصل الجحيم النارُ العظيمة الشديدة الاضطرام، يقال: جَحَمتِ النَّار تجْحَمُ، إذا عظُمت، فهي جاحمة وجحيم.

ثم بيَّن اللهُ سبب استحقاقهم العذاب بقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾؛ أي: إنهم وجدوا آباءهم ضالين ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾؛ أي: يسرعون في اتباعهم من غير برهان، وفي هذا دليل على أن آباءهم يعذَّبون بذلك العذاب الشديد.

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل كفار مكة ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: من الأمم الماضية، أضلَّهم إبليس وأتباعه، فعبدوا مع الله آلهة أخرى؛ كقوم إبراهيم وقوم هود وقوم صالح وغيرهم، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، يعني: أن قومك ليسوا بدْعًا في التكذيب.

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾؛ أي: ولقد أرسلنا في تلك الأمم رسلًا يخوفونهم عذاب الله، كما أرسلناك إلى قومك، فكذَّبوهم كما كذَّبك هؤلاء، فأهلكهم اللهُ شر إهلاك؛ لأن الحجة قامت عليهم، وفي هذا تهديد بالغ لكفار هذه الأمة.

قوله سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ولكل مَن يصلح للخطاب؛ أي: انظر ـ أيها العاقل ـ كيف صارت نهاية هؤلاء الذين أنذرتهم رسلُهم، والاستفهام لتهويل العذاب وتعظيمه؛ أي: كان عذابًا هائلًا ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء منقطع؛ لأن عباد الله هؤلاء ليسوا من جنس الكفرة المكذبين، المعنى: لكن عباد الله المخلَصين، وهم الذين أخلصهم اللهُ لنفسه واختارهم لولايته؛ لأنهم أهل إيمان وطاعة، وأضافهم إلى نفسه تشريفًا لهم، وهذا على قراءة فتح لام ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب (**المُخْلِصِينَ**) بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا دينهم لربهم، فلم يريدوا به غير الله تعالى، وتقدم ذكر ذلك.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر الوعيد بعد الوعد، ترهيبًا بعد الترغيب.

٢ ـ أنَّ سُنَّة القرآن وصفُ الجنة والنار، وذكرُ حال أهلهما.

٣ ـ أنَّ من طرق التعريف بالشيء ذكرَ ضده.

٤ ـ المفاضلة بين النقيضين.

٥ ـ بيان الحكمة في إخراج شجرة الزقوم في النار.

٦ ـ إثبات الجَعْل الكوني.

٧ ـ أنَّ الكفار ظالمون؛ بل هم الظالمون.

٨ ـ أنَّ من أسماء النار الجحيم.

٩ ـ أنَّ وصف النار في القرآن مرعب؛ ففيه غاية الترهيب.

١٠ ـ أنَّ عذاب أهل النار ألوان.

١١ ـ أن أهل النار يأكلون ويشربون، ولكن ماذا يأكلون ويشربون؟! طعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم.

١٢ ـ أن من آيات الله في النار أن ينبت فيها شجرة الزقوم، وأكلها نوع من عذاب أهل النار.

١٣ ـ أن شجرة الزقوم هي نُزُل أهل النار.

١٤ ـ التشبيه بما لم يره الناس، لكن يتخيلونه.

١٥ ـ أن من أغراض التشبيه التقبيح.

١٦ ـ أن أهل النار يُعذَّبون بالجوع الذي يُضطرهم إلى أكل الزقوم.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ إلى قوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٦].

١٨ ـ أن من آيات الله في النار أن أهلها لا يموتون.

١٩ ـ أن في النار أنواعًا من خوارق العادات.

٢٠ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بأن عذاب النار روحاني؛ أي: يتعلق بالأرواح لا بالأبدان.

٢١ ـ أن سبب هذا الشقاء اتِّباع المضلين من الآباء والرؤساء.

٢٢ ـ أن اتِّباع الآباء في الضَّلال ضَلال، وأنَّ حكم التابعين حكم المتبوعين.

٢٣ ـ ذمُّ التقليد، وهو اتباع قول القائل بغير حجة.

٢٤ ـ غلبة الضَّلال على أكثر الناس.

٢٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

٢٦ ـ أنه لا عبرة بالكثرة في معرفة الحق والباطل.

٢٧ ـ الردُّ على الجبرية؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾.

٢٨ ـ إقامة الله الحجة على الضالين بإرسال المنذِرين.

٢٩ ـ إثبات الإرسال الشرعي.

٣٠ ـ رحمة الله بعباده؛ إذْ أرسل إليهم الرسل مبشِّرين ومنذرين.

٣١ ـ سوء عاقبة الضالين عن الحق الذين قامت عليهم الحجة الرِّسالية.

٣٢ ـ الاعتبار بعاقبة المكذبين.

٣٣ ـ أن من العباد من اختصهم الله واصطفاهم.

٣٤ ـ نجاة المخلصين من عقوبة الله.

٣٥ ـ فضل إخلاص الدين لله.

٣٦ ـ إثبات العبودية الخاصة.

ولما ذكر تعالى إنذارَ الرسل وتكذيبَ الأمم، فصَّل ذلك بذكر قصص سبعة من الرُّسُل فيها عِبر بالغة، وتسلية للنبي ﷺ، وابتدأ بنوح لأنه أول الرُّسُل؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن دعوة نوح ربَّه وإجابته له، وإنجاءه وأهله من الكرب العظيم، وأنه تعالى جعل ذريته هم الباقين بعد الطوفان، وجعله مشهورًا في الأمم بعده، محبوبًا يسلِّم عليه كلُّ من ذكره، وأنَّ ذلك جزاء إحسانه في عبادة ربه وإلى قومه بدعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وذكرَ نهاية قومه بالغرق.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾؛ أي: دعانا نوح مستنصرًا على قومه حين يئس من إيمانهم، وكانوا أهل ظلم وطغيان، كما قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢]؛ أي: أشدَّ ظلمًا وطغيانًا، وذلك أن نوحًا عليه السلام أقام بين ظهرانَيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، فما آمن معه إلا قليل، وحكى اللهُ عنه قوله: ﴿...رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥، ٦]، فدعا عليهم نوح، كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وأخبر اللهُ عنه

أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فأجاب اللهُ دعاءه، ولهذا قال هنا: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾؛ أي: ولنعم المجيبون له نحن، والفاء تدل على سرعة الإجابة، والواو في ﴿ٱلْمُجِيبُونَ﴾ للتعظيم.

قوله سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾؛ أي: ونجَّينا نوحًا وأهلَ بيته المؤمنين، ولم ينج ابنه بنصِّ القرآن؛ لأنه كان كافرًا، وأما امرأة نوح وإن كانت كافرة فلم يجر لها ذكر في نهاية أمرها، فالله أعلم بها ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: من الطوفان والغَرق، وأصل الكرب هو الغمُّ الشديد، وظاهر القرآن أنه نجا مع نوح أتباعُه المؤمنون، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الأعراف: ٦٤]، وقال سبحانه عن نوح: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، لكنْ هؤلاء الأتباع المؤمنون لم يبق لهم ذرية، وإنما الذي بقي له ذرية هو نوح فحسب، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾؛ أي: وجعلنا ذرية نوح هم الباقين بعد هلاك مَن على وجه الأرض، فكلُّ مَن بعد نوح فهم من ذريته، كما يُفيده أسلوب الحصر، فنوح هو الأب الثاني للبشر.

ولما ذكر تعالى أنه بارك في ذرية نوح أخبر أنه أدام ذكره في الخير؛ فقال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: أبقينا عليه ذكرًا حسنًا وثناءً جميلًا في الآخرين من الأمم إلى يوم القيامة ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: سلامٌ من الله على نوح، وفي ذلك إكرام له عليه السلام، وأمانٌ من كل سوء في الدنيا والآخرة.

وذهب بعضُ المفسرين إلى أن قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: أنه يسلم عليه كلُّ أحدٍ عند ذكره، فيقول: على نوح السلام، وهذا معنى صحيح، ولا مانع من

حمل الآية على المعنيين؛ فيكون المعنى: أن الله يسلِّم عليه ويسلِّم عليه كل أحد من عباد الله الصالحين.

والتعبير بالآخرين ثم بالعالمين من باب تنويع الكلام، ويقال له: التفنُّن، وهو من طُرق الفصاحة والبيان، والله أعلم.

ثم بيَّن تعالى سببَ إنعامه على نوح؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: إنَّا مثلَ هذا الجزاء العظيم من بقاء الذكر الحسن والسلام على نوح نجزي المحسنين، وهم الذين أحسنوا في عبادة ربهم، وأحسنوا إلى الخلق بصنوف الإحسان ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: نوح عليه السلام ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من الكُمَّل في العبودية والإيمان، وفي وصف نوح بالعبودية مضافًا إلى الله ووصفه بالإيمان تشريف له وتنويه بذكره ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾؛ أي: أغرقنا الكفار المكذبين، وتعقيب القصة بهذه الآية ختام حسن؛ لأنها بيان لنهاية قوم نوح، وهذه النهاية الأليمة لهم هي مناط الإنذار لكفار مكة، وهذا مطَّرد في قصة نوح عليه السلام، حيث تُختم بذكر هلاك قومه، كما في هذه السورة، وفي سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [٦٤].

وسورة يونس في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [٧٣].

وفي الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٧٧].

والشعراء في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [١١٩، ١٢٠].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ فضل نوح نبي الله عليه السلام.

٢ ـ دعاء نوح ربَّه مستنصرًا به.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

٤ ـ إكرام الله نوحًا بأنواع من الكرامة؛ منها:

١ ـ إجابة دعائه.

٢ ـ إبقاء ذريته.

٣ ـ إبقاء الذكر الحسن عليه.

٤ ـ ثناء الله عليه بالإحسان والإيمان.

٥ ـ أنه أول الرُّسُل؛ حتى صار ينوَّه بتقدِّمه على مَن بعده من الأنبياء، وتُذكر قصته مع قومه قبل غيره، كما في الأعراف وهود والشعراء، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

٦ ـ وصفه بالعبودية في موضعين من القرآن، قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

٧ ـ وصفه بالشُّكر، كما في الآية المتقدمة، ولهذا تأسَّى به النبيُّ ﷺ في قوله: «**أفلا أكون عبد شكورا؟**»[1].

٨ ـ أنه أحد أولي العزم الخمسة من الرسل المذكورين في الأحزاب والشورى.

---

(١) البخاري (١٠٧٨)، ومسلم (٢٨١٩) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

٥ ـ ذِكْر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على التعظيم.

٦ ـ ثناء الله على نفسه بإجابته دعاء نوح.

٧ ـ إنجاء الله لنوح وأهله من كرب الطوفان.

٨ ـ جواز الإخبار بالعام المخصوص؛ لقوله: ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾؛ مع أن ابنه من المغرقين.

٩ ـ أن الله جعل ذرية نوح هم الباقين، دون غيرهم من أصحاب السفينة.

١٠ ـ إثبات الجَعْل الكوني.

١١ ـ أن نوحًا عليه السلام هو أبو البشرية الثاني.

١٢ ـ السلام على نوح من جميع الأمم إلى يوم القيامة.

١٣ ـ أن نوحًا عليه السلام من المحسنين.

١٤ ـ أن الإحسان سبب الكرامات في الدنيا والآخرة.

١٥ ـ إثبات القياس في الأحكام الكونية؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٦ ـ أن نوحًا وغيره من الأنبياء عليهم السلام من جملة المؤمنين.

١٧ ـ إثبات العبودية الخاصة.

١٨ ـ أن نهاية قوم نوح الغرق.

١٩ ـ أن من عقوبات المكذبين للرسل الغرق.

٢٠ ـ سوء عاقبة التكذيب للرسل.

٢١ ـ أن اللجوء إلى الله في الشدائد سُنَّة الأنبياء.

٢٢ ـ حكمة الله في أقداره وجزائه.

❁ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

❁ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ قصةَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبيه وقومه واصطفاء الله له، وجهادَه قومه بالقول والفعل، وكيدَ قومه له، وإنجاءَ الله له من كيدهم.

❁ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ أي: وإن من شيعة نوح؛ أي: ممَّن شايع نوحًا، يعني: تابعه على أصل دينه وهو التوحيد، وثبت على منهجه في الدعوة ومصابرة المكذبين ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: إبراهيم الخليل ﷺ، وتأكيد الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام يدل على قوة مُشايعة إبراهيم لنوح ومشابهته له ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرفية؛ أي: حين أقبل إبراهيمُ بكُليته على الله، ويحتمل أن ﴿إِذْ﴾ للتعليل؛ أي: لأنه جاء ربَّه؛ أي: جاءه مخلصًا بالتوحيد ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: بالغ السلامة من الشرك والنفاق والغِل وسائر أمراض القلوب؛ أمراض الشهوات وأمراض الشبهات، وصاحب هذا القلب هو الناجي يوم القيامة، كما

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ثم فصَّل تعالى ما تقدَّم بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ هذا بدل من قوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: جاء إبراهيمُ بقلب سليم حين قال لأبيه وقومه منكرًا عليهم: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ما هذا الذي تعبدونه من الأصنام من دون الله؟! والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

ثم أنكر عليهم ووبَّخهم مرة أخرى بصيغة الاستفهام؛ فقال: ﴿أَإِفْكًا﴾؛ أي: أتريدون إفكًا؟ أي: افتراء وباطلا ﴿آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؛ أي: تعبدونها، فـ ﴿إِفْكًا﴾ مفعول ﴿تُرِيدُونَ﴾، وتقديمه لأجل تقبيح عملهم من أصله، مع مراعاة الفاصلة، و﴿آلِهَةً﴾ بدل من المفعول به.

ثم أنكر عليهم إبراهيمُ مرة ثالثة؛ فقال: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: فما ظنكم بالله المستحق للعبادة إذا لقيتموه وقد أشركتم به؟ هل تظنون أنه يترككم بلا عذاب؟! وفي الاستفهام أيضًا معنى التحذير والتهديد.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ﴾ إبراهيم ﴿نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾؛ أي: رفع رأسه إليها، إيهامًا لقومه أنه يستدل بها على أمر، وكانوا صابئة يعبدون الكواكب، فأراد إبراهيمُ عليه السلام أن يدبِّر مكيدة لهم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ أي: مريض، وأخبر تعالى أنه قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ويذكر كثير من المفسرين أن قومه دعوه ليخرج معهم في عيدهم، فاعتذر بالسقم عن الخروج، والله أعلم.

وقول إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ هو من المعاريض الجائزة؛ كأنه يقول مثلًا: إني سقيم النَّفس من كفركم، أو مثل السَّقيم، وقد يسمَّى هذا

كذبًا[١]، وهو مراد النبي ﷺ بقوله: «**لم يكذب إبراهيم النبيُّ عليه السلام قط إلا ثلاث كذَبات؛ ثنتين في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة**» الحديث[٢].

قوله تعالى: ﴿فَنَوَلَّوْا عَنْهُ﴾؛ أي: فانصرفوا عنه ﴿مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: ولَّوه أدبارهم؛ أي: ظهورهم، وهو تأكيد لمعنى التولي ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾؛ أي: مال إلى أصنامهم بسرعة وخُفية ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، ﴿أَلَا﴾ حرف عرض وتحضيض، يُراد به حصول ما بعده؛ أي: قال إبراهيم مستهزئًا بالأصنام: ألا تأكلون من الطعام الذي قُدِّم لكم؟ فلم تُجب، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؛ أي: ما لكم لا تجيبون؟! قال ذلك تهكُّمًا بها، وإشارة إلى انحطاط عابديها.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ عدَّى راغ بـ (على) لتضمُّنه معنى الإقبال؛ أي: فأقبل على الأصنام ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: ضربًا شديدًا باليد اليمنى لقوتها؛ لأنه لا يريد أن يُبقي منها شيئًا.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓا﴾ الفاء عطف على محذوف؛ أي: فحطَّمها فعلموا، فأقبلوا ﴿إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾؛ أي: يسرعون، تقول العرب: زفَّ النَّعامُ إذا عدا بسرعة؛ كأنه يطير، وجاء في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَن

---

(١) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، وإليك عبارته: «تُباح عند الحاجة الشرعية (المعاريض)، وقد تسمى كذبًا؛ لأن الكلام يعني به المتكلم معنى وذلك المعنى يريد أن يفهمه المخاطب، فإذا لم يكن على ما يعنيه فهو الكذب المحض، وإن كان على ما يعنيه ولكن ليس على ما يفهمه المخاطب فهذه المعاريض، وهي كذب باعتبار الأفهام، وإن لم تكن كذبًا باعتبار الغاية السائغة، ومنه قول النبي ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات**» الحديث، وهذه الثلاثة معاريض، وبها احتج العلماءُ على جواز التعريض للمظلوم، وهو أن يعني بكلامه ما يحتمله اللفظ وإن لم يفهمه المخاطب» مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٢٣).

(٢) البخاري (١٢٢٥)، ومسلم (٢٣٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، ويظهر أن هذا السؤال لبعض القوم ممن لم يعلم بأن الفاعل إبراهيم، وإلا فكثير منهم قد علم به، كما يدل عليه قوله: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾، فأجابهم آخرون بقولهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٠، ٦١] فأتوا به، فسألوه ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] فأجابهم برباطة جأش وتهكُّم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

فصار القومُ ثلاث طوائف: فئة علمت بأن الفاعل إبراهيم، فأقبلوا إليه يزفون مستنكرين، وفئة لم تعلم فسألت: مَن فعل هذا؟ فأجيبوا: سمعنا فتى... إلخ، وفئة هم المجيبون بقولهم: سمعنا فتى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ قال إبراهيمُ ذلك للذين أقبلوا إليه مستنكرين؛ أي: هل تعبدون ما تنحِتونه من الحجارة، وتجعلونها أصنامًا آلهة؟! والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجُّب ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون (مَا) مصدرية؛ أي: خلقكم وعمَلَكم، ويجوز أن تكون اسمًا موصولًا، فيكون المعنى: خلقَكم وما تعملونه، وهي الأصنام التي تعملونها، وكلٌّ من القولين حقٌّ؛ فالله خالق ذوات الأصنام ومادتها، وهو تعالى خالق ما بأيديهم من الآلات والفؤوس التي بها ينحِتون، وهو تعالى الذي أقدرهم على صنع ما يصنعون.

وعلى القول بأن (مَا) مصدرية فإن الآية تكون نصًّا في خلق أفعال العباد، وعلى القول بأنها اسم موصول تكون دلالة الآية على هذا المعنى بطريق اللزوم؛ أي: خلق ما ينحتونه ونحتَهم لها.

ولما أقام إبراهيمُ عليهم الحجة وعجَزوا عن محاجته لجؤوا إلى القوة، وعزموا على إحراقه بعد أن تشاوروا في أمره، قال سبحانه: ﴿قَالُواْ

﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾؛ أي: ابنوا له بُنيانًا، واملؤوه حطبًا ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: فألقوه في النار المتقدة ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾؛ أي: مكْرًا وشرًّا وهو إحراقه بالنار ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾؛ أي: الأذلِّين المقهورين بإبطال كيدهم، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، فهم الأذلُّون الأخسرون؛ لأن الله أبطل كيدهم فقال للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ التناسُب بين نوح وإبراهيم عليهما السلام.

٢ ـ في الآيات شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

٣ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾؛ فهذه ربوبية خاصة تقتضي التأييد والحفظ والتثبيت.

٤ ـ ثناء الله على إبراهيم بسلامة قلبه.

٥ ـ علم الله بما في قلوب العباد.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

٧ ـ عِظم شأن القلب، ووجوب العناية بما يصلحه.

٨ ـ إنكار إبراهيم على أبيه وقومه عبادة الأصنام.

٩ ـ صحة نسبة القوم إلى الرسول وإن كذبوه؛ بل ونسبة الرسول إليهم، كما في قوله: ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، و﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، و﴿أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ﴾ [الشعراء: ١٤٢]، ولوط وشعيب مثل ذلك.

١٠ ـ قوة إبراهيم عليه السلام في الحق.

١١ ـ عدم المداهنة في الحق وإنكارِ المنكر.

١٢ ـ إنكار المنكر بالقول والفعل.

١٣ ـ التهكُّم بالأصنام.

١٤ ـ أن الشرك كلَّه افتراءٌ على الله؛ فكلُّ مشركٍ مفترٍ على الله.

١٥ ـ أن تسمية ما يُعبد من دون الله آلهة لا يصيِّرها كذلك؛ لأن الأسماء لا تغير الحقائق.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقول هود لقومه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

١٧ ـ أن قوم إبراهيم يعرفون الله؛ لقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٨ ـ أن من الجهل والضلال الطمعَ في النجاة مع قبح الأفعال.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [يونس: ٦٠].

٢٠ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢١ ـ جواز التورية في الكلام؛ لقول إبراهيم: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾.

٢٢ ـ غضب المشركين لآلهتهم وانتصارُهم لها.

٢٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

٢٤ ـ فضل اليد اليمنى على اليسرى كونًا وشرعًا، كونًا بقوتها، وشرعًا لاستحباب الفعل بها.

٢٥ ـ أن الله خالق الصانع وما صنع.

٢٦ ـ الرد على القدرية في نفيهم خلقَ أفعال العباد؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

٢٧ ـ الرد على الجبرية في نفيهم خلق أفعال العباد؛ لقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فأضاف العمل إليهم.

٢٨ ـ الاحتجاج على أهل الباطل بموجَب العقل؛ لقوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾.

٢٩ ـ كيد قوم إبراهيم العظيم له، وانتصارُهم لآلهتهم.

٣٠ ـ إبطال الله كيدَهم وانتصارُه لنبيِّه وخليله عليه السلام.

٣١ ـ الرد على الجبرية نُفاة فعل العبد وإرادته؛ لقوله: ﴿تُرِيدُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾.

٣٢ ـ إثبات الجَعْل الكوني؛ لقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

٣٣ ـ عقوبة المبطل بنقيض قصده.

ولما نجَّى اللهُ إبراهيمَ من النار عزم على مُفارقة قومه بالهجرة؛ لأنه يئس من إيمانهم؛ **فلهذا قال سبحانه:**

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن عزم إبراهيم على الهجرة من العراق إلى فلسطين من أرض الشام، ثم بشارة الله له بابنه إسماعيل وقصة الرؤيا والذَّبح، واستسلام إبراهيم وإسماعيل لأمر الله، وتصديق إبراهيم للرؤيا، وفدى الله لإسماعيل بالذِّبح العظيم، ثم بشارة إبراهيم بإسحاق عليهما السلام.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ أي: مهاجر إلى الأرض المقدسة لأجل ربي؛ أي: لعبادته، وجاء تصريحُ إبراهيم بالهجرة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: سيُرشدني إلى ما فيه الخير لي في ديني ودنياي، وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾، ولم

يقل: إلى الله؛ استحضارًا لإنعامه تعالى الذي هو مقتضى ربوبيته، ولهذا تَوسَّل باسم الرب في دعائه، فقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: ارزقني ولدًا صالحًا، ولعل دعاء إبراهيم بطلب الولد ليكون أنيسًا له في هجرته، ويكون عِوضًا عن قومه الذين فارقهم، والله أعلم.

وقد أجاب اللهُ دعاء إبراهيم؛ فقال سبحانه: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾؛ أي: فبشرناه بغلام موصوف بالحِلم الوافر، وهو التأنِّي في الأمور، والصبر على المشاق، وأيُّ حِلمٍ أعظمُ من حِلمه حين عرض عليه أبوه الذبح؟! وقد وصف اللهُ إبراهيم بالحِلم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]؛ فالولد الموهوب قد أشبه أباه.

وجمهور العلماء على أن هذا الغلام هو إسماعيل[(١)]، وهو الابن البكر لإبراهيم، قال ابن كثير: وهو الصحيح المقطوع به[(٢)].

وذهب جماعةٌ إلى أن الذبيح إسحاق، ويردُّ هذا القول أن الله قال بعد آيات: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فهما بشارتان لإبراهيم:

---

(١) نسب هذا القول إلى الجمهور غير واحد؛ منهم: ابن عطية في تفسيره (٦/ ٤٢) عند قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، والسبكي في «الإبهاج شرح المنهاج» (٢/ ٢٣٧)، والعليمي الحنبلي في «فتح الرحمٰن في تفسير القرآن» (٤/ ٢٥٩)، وقال الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٠٩): «وقد كنتُ أرى مشايخ الحديث قبلنا وفي سائر المدن التي طلبنا الحديث فيه، وهم لا يختلفون أن الذبيح إسماعيل»، قلتُ: وبهذا يُعلم أن قول القرطبي في تفسيره (١٨/ ٦١): «أكثر العلماء على أن الذبيح هو إسحاق» غير دقيق. قال ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٧١): «وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهًا، وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس اللهُ روحه ـ يقول: هذا القول إنما هو مُتلقًّى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم».

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٣٣).

إحداهما بإسماعيل، والأخرى بإسحاق، ثم إن الذَّبح كان بمكة بلا خلاف بين العلماء، ولم يروا أن إسحاق دخل تلك البلاد، وأما حديث: **«أنا ابن الذبيحين»**[1] فليس بثابت.

ثم ذكر اللهُ قصةَ الذَّبح؛ فقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾؛ أي: فلما شبَّ الغلامُ وجدَّ في أمره، وصار مثل أبيه في سعيه في شؤونه؛ لأن السعي هو المشي السريع دون العدو، ويُستعمل للجد في الأمور، وهو المراد هنا، وظاهر الآية أن إسماعيل بلغ الحُلم؛ لأن الله وصفه بالحليم؛ ولم تجر العادةُ أن صغار السنِّ يوصفون بذلك، ويؤيد ذلك عرض إبراهيم الرؤيا على ولده ليختبر عقله ورشده، وهذا لا يليق إلا بمن هو بالغ ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ﴾ أضافه إبراهيمُ إلى نفسه وناداه بصيغة التصغير؛ تحنُّنًا له وشفقة عليه، وتلطُّفًا لما يريد أن يخبره به ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾؛ أي: رأيتُ ﴿فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ وقيل: إن التعبير بالمضارع ﴿أَرَىٰ﴾ على بابه؛ فيُفيد تكرُّر الرؤيا على إبراهيم، مما يوجب عليه المبادرة والاهتمام.

فالآية صريحة في أن إبراهيم عليه السلام رأى في المنام أنه يذبح ابنه فعلًا، وليس كما قاله بعضُ المفسرين: إنه رأى أن الله يأمره بذلك، فالمرئي في المنام هو فعل الذبح، وتأويله الأمر به في اليقظة، وهذا معنى أن رؤيا الأنبياء وحيٌ ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؛ أي: ماذا ترى في ذلك؛ لأن أمر الله لا بد من تنفيذه، وكان هذا الأمر لإبراهيم بطريق الرؤيا، ولم يكن أمرًا مباشرًا في اليقظة؛ ليكون امتثال إبراهيم وابنه أكمل؛ لأن الأمر بطريق الوحي المنامي أقلُّ في التكليف من الأمر في اليقظة.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٤)، قال الذهبي في «التلخيص»: «إسناده واه». وقال ابن كثير في «التفسير» (٧/ ٣٥): «إسناده غريب جدًّا».

ثم أخبر اللهُ بجواب الابن؛ فقال سبحانه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: افعل ما أمرك اللهُ به، ثم أكَّد امتثاله بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي: من الصابرين على ما أمرت به، وقرن قوله بالمشيئة؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته تعالى ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾؛ أي: استسلما وانقادا لأمر الله ﴿وَتَلَّهُۥ﴾؛ أي: جذبه وألقاه ﴿لِلْجَبِينِ﴾؛ أي: على جنبه فوقع أحدُ جبينيه على الأرض، والجبين جانب الجبهة، واللام بمعنى (على)، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وللإنسان جبينان تفصل بينهما الجبهة.

قوله سبحانه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ هذه الجملة معطوفة على محذوف هو جواب (لمَّا)؛ أي: فلما أسلما وتلَّه للجبين تحقق صدقُ إبراهيم، وناديناه أن يا إبراهيم، وحذف جواب (لمَّا) كثير في القرآن، ومنه قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ١٥].

والمنادي لإبراهيم يحتمل أن يكون هو الله ﷻ بلا واسطة، ويجوز أن يكون الملائكة، وعليه فلا يقال: إن الآية تدل على إثبات الكلام لله ﷻ، لاحتمال أن يكون النداء من الملائكة ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، ﴿أَن﴾ تفسيرية بمعنى (أي)؛ فهي مفسِّرة لفعل ناديناه؛ لأن فيه معنى القول دون حروفه؛ أي: نودي بهذا الكلام ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ﴾؛ أي: فعلتَ ما أُمرت به، وتحقَّق امتثالُك بعزمك على الذبح وفعل مقدماته، و(أل) في الرؤيا للعهد الذكري.

وقد أكثر المفسرون هنا القول في تفصيل القصة فأدخلوا فيها كثيرًا من الروايات الإسرائيلية، ومن ذلك أنهم ذكروا حوارًا جرى بين إبراهيم وابنه، وأن إبراهيم أمرَّ الشَّفرة على حلق ابنه، فلم تمض فيه؛ لأن الله

ـ كما زعموا ـ ضرب صفيحة من نحاس على حلق إسماعيل، إلى غير ذلك مما قيل، وكلُّ ذلك لا دليل عليه من كتاب ولا من سُنَّة، فالواجب الوقوف مع ما دل عليه القرآن، وصحَّت به الأخبار.

ثم ذكر تعالى سبب رفع ذلك البلاء، وحصول الفرج بعد الشدة؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: كما جزيناك ـ يا إبراهيم ـ على صدقك نجزي كل محسن بتفريج كربته ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ أي: إن هذا الابتلاء الذي ابتلينا به إبراهيم وابنه ﴿لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الابتلاء البيِّن الذي يتبين به صدقُ الإيمان، وصدقُ المحبة، وكمالُ الطاعة.

قوله سبحانه: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الذبح بمعنى المذبوح؛ كالطِّحن بمعنى المطحون، والحِمل بمعنى المحمول؛ أي: فَدى اللهُ ابن إبراهيم الذي أمره بذبحه بذِبح عظيم؛ أي: بكبش عظيم الجسم والقدر، يذبحه إبراهيم.

وجمهور المفسرين على أن الذِّبح كبش، كما يدل له قولُه ﷺ لعثمان رضي الله عنه: «**إني كنتُ رأيتُ قرني الكبش حين دخلتُ البيت، فنسيتُ أن آمرك أن تخمِّرهما فخمِّرهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي**»[1]، قال سفيان راوي الحديث: «لم يزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت، فاحترقا»، **قلتُ**: وهذا يدل على أن ذرية إسماعيل قد توارثوا قرني الكبش حتى انتهيا إلى قريش فعلقتهما في الكعبة.

وذكر بعض المفسرين أن الحكمة في ابتلاء إبراهيم تخليصُ قلبه من محبة الولد؛ لئلا تُزاحم محبتُه لولده حبَّه لله؛ لأن الله اتخذه خليلًا،

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٣٢٢١)، وأبو داود (٢٠٣٠)، قال محققو المسند: إسناده صحيح، وصححه الألباني.

والخُلَّة أعلى مراتب المحبة؛ لذلك لا تقبل الشركة، ومعنى ذلك: أن الله لما اتخذ إبراهيم خليلًا كان اللهُ خليله، فلما وهب اللهُ لإبراهيم الولد كان لا بد أن تكون له شعبة من قلبه، فامتحنه الله بذبحه؛ فلما عزم على ذلك تخلَّص قلبُه من حبه للولد لحبه لربه، وقد ردَّ هذا القول شيخُنا العلامة الشيخ عبد الرحمٰن البراك محتجًّا «بأن أصحاب هذا القول لم يذكروا دليلًا عليه؛ فهو محض الاستنباط بالظن، ويُخشى أن يكون من القول على الله بغير علم، وإن قال ذلك بعضُ الأكابر كابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]، ولا أحد معصوم بعد النبي ﷺ، وقد يرِد على هذا الاستنباط المظنون أن الله اتخذ محمدًا ﷺ خليلًا، وأعطاه البنين والبنات، وكانت فاطمة أحب أولاده إليه ﷺ، حتى قال ﷺ: «**فاطمة بضْعة منِّي يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها**»[2]، وما الدليل على أن إبراهيم لما رزقه الله الولد زاحمت محبتُه محبة الله، فلم تَخلص محبتُه لله حتى ابتُلي بذبح ولده؟!

ويُشكل على قولهم: (إن الخلة لا تقبل الشركة) أن الله اتخذ محمدًا ﷺ خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ[3]، فليُتدبر، ومن أصول الإيمان أن كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا الرسول ﷺ». اهـ كلام شيخنا.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾؛ أي: أبقينا عليه ذكرًا حسنًا في الآخرين من الأمم إلى يوم القيامة، ولعل هذا استجابة من الله لدعاء إبراهيم في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: سلامٌ من الله على إبراهيم،

---

(١) «روضة المحبين» (ص٤٨)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٣٠٨).
(٢) البخاري (٤٩٣٢)، ومسلم (٢٤٤٩) عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.
(٣) مسلم (٥٣٢) عن جندب بن جنادة رضي الله عنه.

وفي ذلك إكرامٌ له عليه السلام، وأمانٌ من كلِّ سوء في الدنيا والآخرة، وتقدم في قصة نوح أنه يصحُّ جَعْل قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ أي: أنه يسلِّم عليه كلُّ أحد عند ذكره، فيقول: عليه السلام.

قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: مثلَ جزاء إبراهيم نجزي المحسنين، ولم يؤكَّد الخبر بـ (إنَّ) اكتفاء بتأكيده في الآية السابقة، وهو من تنويع الكلام، وفي إعادة قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ثناءٌ على إبراهيم، وتأكيدٌ لوعد الله بالجزاء الحسن لكلِّ من أحسنوا ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: إن إبراهيم من الكُمَّل في العبودية والإيمان، وفي وصفه بذلك وإضافتِه إلى الله تشريفٌ له وإعلاءٌ لذكره.

ثم ذكر اللهُ منَّة أخرى على إبراهيم؛ فقال سبحانه: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ﴾؛ أي: بشارةً ثانية بابنه إسحاق من زوجته سارة بعد البشارة الأولى بإسماعيل من زوجته هاجر، والمبشِّر بإسحاق هم الملائكة، كما جاء ذلك في سورة هود والحجر والذاريات، وأضاف اللهُ البشارة إليه؛ لأن ذلك كان بأمره تعالى ﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: وسيصير نبيًّا وعبدًا صالحا، فـ ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدَّرة من إسحاق ليست مقارنة؛ لأنه لم يكن نبيًّا حينئذ.

قوله سبحانه: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾؛ أي: وجعَلْنا إبراهيم وإسحاق مباركين، كما قال عيسى عليه السلام مذكِّرًا بنعمة الله عليه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣١]، والبركة هي كثرة الخير والنماء، ومن ذلك كثرة الذرية وإخراج الأنبياء من نسل إبراهيم وإسحاق، فجميع أنبياء بني إسرائيل من ذرية إسحاق ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ أي: ومن ذرية إبراهيم وإسحاق ﴿مُحۡسِنٞ﴾؛ أي: محسن في عمله مطيع لربه؛ كموسى وهارون وداود وسليمان وعيسى وسائر إخوانهم من الأنبياء والصالحين ﴿وَظَالِمٞ

لِّنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: بكفره أو معصيته ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: واضح الظلم، ومَن أحسن فلنفسه، ومَن أساء فعليها، ولا يعود على الآباء شيء من ذلك.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ مشروعية الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، أو بلد الخوف إلى بلد الأمن.

٢ ـ أن الهجرة مشروعة في شرع من قبلنا، كما هي مشروعة في شريعتنا.

٣ ـ وجوب الإخلاص في الهجرة؛ لقول إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾.

٤ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله...**»[1] الحديث.

٥ ـ حُسن ظن إبراهيم بالله.

٦ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٧ ـ الرد على القدرية؛ لقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾.

٨ ـ أن الولد هبة من الله لمن شاء.

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

١٠ ـ استحباب تقييد طلب الولد والذرية بالصلاح أو الطِّيب.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

---

(١) رواه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر بن الخطاب ﷺ.

١٢ ـ استحباب بشارة المسلم بما يسرُّه.

١٣ ـ أن المولود نعمة.

١٤ ـ البشارة بالمولود.

١٥ ـ أن الذبيح إسماعيل عليه وعلى أبيه السلام.

١٦ ـ الفرق في البشارة بين إسماعيل وإسحاق، ويظهر ذلك من وجهين:

الأول: وصف إسماعيل بالحلم، وإسحاق بالعلم.

الثاني: أن إسحاق هو الذي بشَّرت به الملائكةُ ضيفُ إبراهيم، وأما إسماعيل فلم يُصرَّح بمن بلَّغ البشرى به.

١٧ ـ أن إسماعيل أثَرُ دعوة إبراهيم في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١٨ ـ أن الحِلم من الصفات المحمودة.

١٩ ـ ابتلاء الله الأنبياءَ والصالحين ببعض الأمور العِظام الشاقة على النفوس.

٢٠ ـ صدق إسماعيل في وعده أباه بالصبر.

٢١ ـ مشروعية تعليق الوعد بالمشيئة.

٢٢ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٢٣ ـ فيها شاهد لقول موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

٢٤ ـ استسلام الخليل وابنه لأمر الله.

٢٥ ـ أن رؤيا الأنبياء وحيٌ.

٢٦ ـ أن فعل النبي في المنام تأويله الأمر به.

٢٧ ـ أن تنفيذ ما أُمِر به النبيُّ في المنام تصديقٌ للرؤيا.

٢٨ ـ أن كلَّ ما أمر اللهُ به ففعْله طاعة وعبادة لله.

٢٩ ـ أن أمْر الإنسان بذبح نفسه أو ولده بلاءٌ؛ أي: ابتلاء.

٣٠ ـ أن توفيق الله العبدَ لفعل ما أُمِر به من جزاء المحسنين.

٣١ ـ قوة خليل الله إبراهيم في امتثال أمر الله بذبح ولده؛ لقوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾.

٣٢ ـ أن العزم على الفعل مع فعل المقدور مُنزَّلٌ منزلة الفعل التام.

٣٣ ـ جواز النسخ قبل الفعل.

٣٤ ـ أنه ليس كلُّ ما يأمر اللهُ به يشاؤه سبحانه؛ ففيه:

٣٥ ـ الردُّ على المعتزلة في قولهم: إن كلَّ ما أمر اللهُ به قد شاءه.

٣٦ ـ فداء الله إسماعيل بذِبح عظيم.

٣٧ ـ أن هذا الفداء أصلُ سُنَّة الأضحية.

٣٨ ـ أن مَن نذر ذبح ولده أجزأ عنه ذبح شاة، على ما قاله كثير من أهل العلم، وقيل: يجزئه كفارة يمين؛ لأنه نذر معصية، وفي الحديث: «**من نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[(١)]، وفي رواية: «**وكفارته كفارة يمين**»[(٢)]، وهذا أرجح.

٣٩ ـ إبقاء ذكر إبراهيم الخليل عليه السلام، والسلامُ عليه في الآخرين من الناس.

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٦٠٩٨) وصححه محققوه، وأبو داود (٣٢٩٢)، والترمذي (١٥٢٤)، وابن ماجه (٢١٢٥) عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني.

٤٠ ـ أن ذلك من الجزاء على الإحسان.

٤١ ـ أن الإحسان سببٌ لتفريج الكروب.

٤٢ ـ إثبات العبودية الخاصة.

٤٣ ـ بشارة إبراهيم بإسحاق نبيًّا.

٤٤ ـ إثبات النبوة لإسحاق عليه السلام.

٤٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

٤٦ ـ وصف الأنبياء بالصلاح والإيمان؛ فهم من الصالحين ومن المؤمنين، وجاء هذا في مواضع من القرآن.

٤٧ ـ جَعْل الله البركة على إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، وهو ما يحصل منهما من عبادة الله، وعلى أيديهما من الدعوة إلى توحيد الله وطاعته.

٤٨ ـ أن البركة التي في العبد من الله.

٤٩ ـ الإجمال في البشارة بإسحاق في هذه السورة، وتفصيلُها في ثلاث سور: هود والحجر والذاريات.

٥٠ ـ إثبات الذرية لإسحاق.

٥١ ـ أن أولاد الأنبياء يكون منهم الصالح والطالح، والمحسن والظالم.

٥٢ ـ أن معصية الذريَّة لا تضر الآباء.

٥٣ ـ أن فضل الآباء لا ينفع العاصي من الذرية.

٥٤ ـ التعريض بقريش وفخرهم بنسبهم إلى إبراهيم، وأن ذلك لا يُغني عنهم شيئًا مع شركهم.

٥٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

٥٦ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**ومن بطَّأ به عملُه، لم يُسرع به نسبُه**»[١].

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولما ذكر اللهُ إنعامَه على إبراهيم وإسحاق ذكر إنعامَه على بعض أولادهما، وابتدأ بموسى وهارون؛ لأنهما صاحبا التوراة، ولهما شريعة مستقلة؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بمنن الله تعالى على موسى وهارون بالنبوة والرسالة، وإيتائهما الكتاب، ونجاتهما وقومهما من الكرب العظيم، وهو الغرق في البحر، ونصرهما على فرعون، وجعلهما الغالبين، وإيتائهما الكتاب المستبين وهو التوراة، وهدايتهما الصراط المستقيم، والثناء عليهما بالإحسان والإيمان.

▩ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ أي: ولقد أنعمنا عليهما بنعم كثيرة، ومنافع دينية ودنيوية، ثم فصَّل هذه النعم؛ فقال سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: من الغمِّ العظيم؛ أي: من استعباد فرعون إياهم، ومن الغرق ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ الضمير يرجع إلى موسى وهارون وقومهما؛ أي: ونصرناهم على أعدائهم آل فرعون ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾؛ أي: الغالبين لعدوهم،

وهذا أبلغ في الامتنان من الإنجاء؛ لأن في إهلاك العدو وتدميره أمان النفوس واطمئنانها.

ثم ذكر اللهُ إنعامَه على موسى وهارون بالنبوة؛ فقال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة، و(أل) للعهد الذهني ﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾؛ أي: البالغ النهاية في البيان والتفصيل، ولذلك كانت التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، وهي أصل كتب بني إسرائيل، فيرجع إليها جميعُ الأنبياء بعد موسى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الآية [المائدة: ٤٤].

قوله سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: وأرشدناهما إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ويوصل إلى الجنة، وهو دين الإسلام، الذي هو دين جميع الأنبياء ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: وأبقينا عليهما ذكرًا حسنًا في الآخِرين إلى يوم القيامة ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ أي: سلامٌ من الله على موسى وهارون، وفي ذلك إكرام لهما، وأمان من كل سوء في الدنيا والآخرة، ولك أن تجعل قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: أنه يسلم عليهما كلُّ أحد عند ذكرهما، فيقول: عليهما السلام، كما تقدم نظيره في قصة نوح وإبراهيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: مثلَ هذا الجزاء العظيم من بقاء الذكر الحسن والسلام على موسى وهارون نجزي كلَّ محسن، وهو الذي أحسن في عبادة ربه، وأحسن إلى الخلق بأنواع الإحسان ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من الكُمَّل في العبودية والإيمان، وفي وصف موسى وهارون بالعبودية مضافين إلى الله ووصفهما بالإيمان تشريف لهما وتنويه بذكرهما.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يمُن على مَن يشاء مِن عباده بالنعم الدينية.

٢ ـ أن الله منَّ على موسى وهارون بمنن عظيمة من النبوة والرسالة والكتاب.

٣ ـ أن مِن أعظم نعم الله على العبد العلم النافع.

٤ ـ إنعام الله على موسى وهارون وقومهما بالنجاة من فرعون ومن الكرب العظيم، وبنصرهم على فرعون، وجعلهم ظاهرين.

٥ ـ أن الله جعل العاقبة لموسى وهارون وقومهما.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

٧ ـ أن من أسماء التوراة: الكتاب، وشواهده كثيرة.

٨ ـ الثناء على التوراة بأنها مُستبينة؛ أي: بيِّنة.

٩ ـ أن هارون تابع لموسى فيما يؤتاه، فيضاف إليه ما أضيف لموسى.

١٠ ـ أن مِن منَّة الله على موسى وهارون هدايتهما الصراط المستقيم.

١١ ـ افتقار كلِّ أحد إلى هداية الله.

١٢ ـ الرد على القدرية في نفيهم هداية التوفيق.

١٣ ـ ثناء الله على موسى وهارون عليهما السلام بالإحسان والعبودية والإيمان.

١٤ ـ أن مَن أحسنَ أحسنَ اللهُ إليه.

١٥ ـ أن الجزاء على الأعمال خيرًا كانت أو شرًّا.

١٦ ـ أن الله جعل لموسى وهارون ثناءً حسنًا في الأمم.

١٧ ـ إثبات العبودية الخاصة.

١٨ ـ أن كلَّ أحد عبدٌ لله؛ عبودية عامة أو خاصة.

١٩ ـ الثناء على الأنبياء والرسل بالإيمان.

ولما ذكر اللهُ لتسلية نبيِّنا محمد ﷺ أخبارَ ثلاثة رُسُل من أصحاب الشرائع، وهم نوح وإبراهيم وموسى، أتبعهم بذكر خبر ثلاثة رُسُل، وهم إلياس ولوط ويونس؛ تنويعًا في القصص، وزيادة في تهديد المشركين، وابتدئ بإلياس؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن نبي الله إلياس عليه السلام، ودعوته لقومه إلى عبادة الله، وترك عبادة البعل، وأنَّهم كذَّبوه، ومنهم مَن آمن به، وأنَّ الله ترك له ثناءً حسنًا في الآخرين، وسلَّم عليه، وأثنى عليه بالإحسان والعبودية والإيمان.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: المرسلين الذين اختارهم اللهُ لرسالته، وأنعم عليهم بالنبوة، وإلياس مرسَل إلى من بعد موسى ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾؛ أي: حين قال لقومه مِن بني إسرائيل: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ﴿أَلَا﴾ أداة عرض وتحضيض؛ أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب مناهيه، والفعل المضارع يدل على وجوب تقوى الله في جميع الأوقات.

قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾؛ أي: كيف تعبدون هذا الصَّنم المسمَّى بعْلًا؟! والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾؛ أي: وتتركون عبادة الله، ومعنى الخالقين هنا: المقدِّرين؛ فإن الخلق يُستعمل بمعنى الإيجاد، ويُستعمل بمعنى التقدير، وهو المراد هنا؛ لأن الخلق بمعنى الاختراع لا يكون من غير الله تعالى، حتى يكون أحسنهم ﴿اللَّهَ﴾ بدل من ﴿أَحْسَنَ﴾، ﴿رَبَّكُمْ﴾ بدل من ﴿اللَّهَ﴾، فهو بدل من بدل ﴿وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ معطوف على ﴿رَبَّكُمْ﴾؛ أي: الله الذي خلقكم أنتم وآباءكم بعد العدم، وربَّاكم بنعمه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: فكذبُّوا إلياس ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لمحضرون في العذاب، ولم يقيَّد اللفظ بذلك؛ لأن الإحضار لا يكون إلا في الشر غالبًا، كما تقدم ذكر ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء منقطع؛ لأن عباد الله هؤلاء ليسوا من جنس الكفرة المعذَّبين، المعنى: لكن عباد الله المخلَصين، وهم الذين أخلصهم اللهُ لنفسه واختارهم لولايته وهم المؤمنون ـ وهذا على قراءة فتح اللام ـ لا يعذَّبون؛ لأنهم أهل إيمان وطاعة، ويجازيهم اللهُ بأضعاف أعمالهم، ومن دلائل شرفهم أن الله وصفهم بالعبودية وأضافهم إلى نفسه المقدَّسة.

وقرأ ابنُ كثير وابنُ عامر وأبو عمرو ويعقوب (**المُخْلِصِينَ**) بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا عبادتهم لله، فلم يريدوا بها غير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

تقدم تفسير نظائر هذه الآيات في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون، فليُرجع إليها، وقوله ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ ذهب جمع من المفسرين إلى أن إلياسين جمع إلياس، والمراد إلياس وأتباعه، بتغليبه

عليهم، كما يقال: المسامِعَة والمهالبة، تريد بني المهلَّب وبني مِسمَع.

وقيل: إن إلياسين لغة في إلياس زيدت الألف والنون، مثل سيناء وسينين، على طريقة العرب في التوسُّع والتصرُّف في الأسماء الأعجمية، ورجَّح الطبريُّ هذا القول محتجًا بأن الآيات السابقة جاء فيها السلام على النبي الذي ذُكر دون آله، ولا يخفى وجهه.

ولم ترِد قصة إلياس مع قومه إلا في هذه السورة، وقد ورد ذكرُ اسمه في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن إلياس رسولٌ من الله.

٢ ـ أن إلياس رسولٌ إلى قومه من بني إسرائيل.

٣ ـ وجوب تقوى الله على العباد.

٤ ـ أن أعظم ما يجب من التقوى تركُ الشرك بالله.

٥ ـ ذكر الدليل على التوحيد وبُطلان الشرك.

٦ ـ أن قوم إلياس مشركون.

٧ ـ أن وثنهم اسمه: البَعْل.

٨ ـ أن الدعاء عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، وشواهد ذلك في القرآن كثيرة.

٩ ـ أن إلياس أنكر على قومه، وسفَّه عقولهم، وأقام الحجة عليهم.

١٠ ـ أن قومه كذَّبوه.

١١ ـ أنهم سيُحضَرون للحساب والعذاب، إلا مَن آمَن منهم من عباد الله المخلَصين.

١٢ ـ أن تكذيبهم سببُ إحضارهم في العذاب.

١٣ ـ إثبات البعث والجزاء.

١٤ ـ أن من أسماء الله أحسن الخالقين.

١٥ ـ أن من صفات الله الفعلية الخلق.

١٦ ـ جواز إطلاق اسم (الخالق) على بعض العباد مُرادًا به المقدِّر.

١٧ ـ إثبات الربوبية العامة.

١٨ ـ أن الله ترك لإلياس ثناءً حسنًا في الآخِرين.

١٩ ـ أن الله سلَّم عليه.

٢٠ ـ أن إلياس من المحسنين، ومن عباد الله المؤمنين.

٢١ ـ إثبات العبودية الخاصة.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن لوط عليه السلام بأنه رسول من رُسُل الله، وأن الله نجَّاه من العذاب وأهله كلَّهم إلا امرأته العجوز؛ وأنه تعالى دمَّر قومهم، وفي هذا تحذير لأهل مكة، وإنذار بالغ؛ حيث كانت ديار قوم لوط على طريقهم يمرون عليها ليلًا ونهارًا، وكيف لا يعتبرون؟! فإن أعرضوا فإنهم لا يعقلون.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: من الرُّسُل الذين اختارهم اللهُ لرسالته، وأرسلهم إلى دعوة الخلق وعبادته وحده لا شريك له، وقد أرسله اللهُ إلى أهل سَدُوم وما يتبعها من قرى، وتقع بلادهم شرقيَّ الأردن، بقرب البحر الميت، ويقال: إنها البحر الميت نفسُه، غمرها الماءُ بعد العذاب، والله أعلم، وقد أخبر اللهُ عن قوم لوط أنهم كانوا يعملون الفاحشة النكراء، التي تشمئز منها القلوب، وتنفر منها الطباع، وهي إتيان الرجال دون النساء، ولم يسبقهم بها أحد من العالمين، وهي من أقبح المنكرات؛ لما فيها من فساد الفطرة التي فطر اللهُ الناس عليها، وتدمير معاني الفضيلة والرجولة، ولما تُفضي إليه من انقطاع النسل، ولذا سميت في القرآن فاحشة في مواضع، كما

وصف اللهُ قومَ لوط بجميع أوصاف الذمِّ من الإسراف والظلم والإجرام والسُّوء والفسق والعدوان والجهل والإفساد، في الأعراف وهود والحجر والأنبياء والشعراء والنمل والعنكبوت.

وقد زاد كفَرةُ هذا العصر على قوم لوط؛ فأباحوا عقد الرجل على الرجل؛ ليكون منكوحًا له؛ كالعقد على المرأة، فما سبقهم إلى ذلك ولا قوم لوط، عليهم لعائن الله، وإنَّا لعذاب الله لهم لمنتظرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

وأخبر القرآنُ في مواضع أن لوطًا عليه السلام أمر قومَه بتقوى الله، وأنكر عليهم فَعلتهم، ولكنهم لم يستجيبوا له؛ بل عيَّروه بالتطهُّر، ولجُّوا في طغيانهم يعمهون، فنزل بهم عذابُ الله، وجاءت قصةُ لوط في هذه السورة موجزة؛ لأن المقصود التذكير بها بذكر إنجاء الله النبي الكريم، وهلاك قومه، وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للمكذبين.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾؛ أي: اذكر إذْ نجينا لوطًا، وليس الظرف ﴿إِذْ﴾ متعلقًا بـ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ فلا موجب لهذا التقييد؛ لأن لوطًا من المرسلين مذْ أرسله الله ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾؛ أي: أهل بيته ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيد لـ ﴿أَهْلَهُۥ﴾، ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ الاستثناء متصل؛ أي: إلا امرأته العجوز؛ فقد كانت كافرة على دين قومها، ولا يعلم لوط بذلك؛ لأنها منافقة، وكانت تُظاهر قومَها على لوط ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: الباقين في العذاب، يقال: غبَر يغبُر غُبورًا، إذا بقي ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾؛ أي: ثم أهلكنا مَن سوى لوط ومَن آمن به أشدَّ هلاك وأفظعه؛ فإنَّ الله قلب عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، فاجتمع عليهم العذابان: الخسف والرجم بالحجارة.

ثم خاطب اللهُ كفار مكة، وأرشدهم إلى الاعتبار بما حلَّ بأولئك؛ لئلا يكونوا مثلهم في سوء العاقبة؛ فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على بلادهم في سفركم إلى الشام ذاهبين وآيبين ﴿مُّصْبِحِينَ﴾، ﴿وَبِالَّيْلِ﴾؛ أي: ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً.

قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أذَهَبت عقولُكم فلا تعتبرون بما تشاهدونه من مصارع الطغاة والمكذبين؟! والاستفهام للإنكار والتوبيخ على عدم الاعتبار.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن لوطًا عليه السلام رسول من جملة المرسلين.

٢ ـ أن قومه كذَّبوه، فعذَّبهم الله.

٣ ـ أن الله نجَّى لوطًا وأهله.

٤ ـ أن امرأة لوط لَحِقت بقومها في العذاب؛ لأنها كافرة منافقة.

٥ ـ أنه لم ينج من العذاب إلا لوط وأهله.

٦ ـ أن وصف المرأة بالعجوز تحقير لها؛ فلا ينبغي أن يذكر الولدُ أمَّه بذلك؛ فإنه من العقوق.

٧ ـ أن الكفر والعصيان سبب للعذاب والدَّمار.

٨ ـ أن الإيمان والطاعة سبب للنجاة.

٩ ـ أن أهل الرجل امرأتُه وأولادُه.

١٠ ـ أن ديار قوم لوط في طريق أهل مكة إلى الشام، وهي سدُوم، وتُعرف الآن بالبحر الميت. والله أعلم.

١١ ـ أن ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ليس من الليل، بدليل عطف الليل عليه؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، ويشهد له قولُه تعالى:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ [البقرة: ١٨٧].

١٢ ـ أنَّ عِلم المشاهدة أبلغ في اليقين من الخبر، ويُسمَّى عين اليقين.

١٣ ـ أنَّ مَن لم يعتبر بالحوادث فذلك من نقص عقله أو عدمه.

❁ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

❁ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن نبي الله يونس أنه مرسَل من عند الله، وأنه واحد من عِداد المرسلين، وأن ممَّا جرى عليه أن هرب من قومه مغاضبًا لهم، فركب سفينة في البحر مشحونة بأهلها، فحصل لهم ما يقتضي تخفيفَ حِمل السفينة، فاستهم أهلُها، فأسهم معهم، فوقع السهمُ عليه، فألقى نفسه في البحر، فالتقمه حوت، فسبَّح يونسُ ربَّه وهو في بطن الحوت، فاستجاب اللهُ دعاءه بسبب تسبيحه، فألقاه الحوتُ من بطنه خارج البحر في العراء، وهو سقيم؛ أي: عليل؛ لمكثه في بطن الحوت، فأنبت اللهُ عليه شجرة تُظله وتقيه مما يؤذيه، ثم أرسله اللهُ إلى قومه مرة أخرى، وكانوا مئة ألف أو أكثر، فآمنوا به، وذلك بعد رؤيتهم العذاب، فنفعهم إيمانهم، فمتَّعهم اللهُ إلى الحين الذي تنتهي به آجالهم.

❁ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: وإن يونس بن مَتَّى من رُسُل الله الذين أرسلهم إلى بني إسرائيل؛ لتبليغ الرسالة بدعوتهم إلى عبادة الله وحده ﴿إِذْ أَبَقَ﴾؛ أي: اذكر إذْ أبَق؛ فليس الظرف متعلقًا

بـ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأن يونس رسول قبل أن يأبق، كما تقدم التنبيه على نظيره في قصة لوط عليه السلام ﴿أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: فرَّ إلى السفينة المملوءة بالناس والمتاع، وأصل الإباق هربُ العبد من سيده، والمراد هنا: أن يونس هرب وترك قومه بغير إذن من ربِّه، وذلك أنهم أغضبوه بعدم إيمانهم، ففرَّ منهم، كما قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾؛ أي: فقارع يونس، من القُرعة بالسهام ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي: المغلوبين بالقُرعة، تقول العرب: دحضَت رجلُه إذا زلَقت، وأدحضه غيرُه إذا أزلقه، والمراد: أنه صار مغلوبًا بأن وقعت القُرعةُ عليه ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: ابتلعه الحوتُ والحال أنه مستحق للَّوم، يقال: ألام الرجلُ إذا فعل ما يُلام عليه.

ثم ذكر تعالى ما كان سببًا في نجاته من العمل الصالح؛ فقال سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾؛ أي: الذاكرين الله كثيرًا، وعن جمع من السلف أن المراد بالتسبيح: الصلاة، ورجَّحه ابنُ جرير[1]، ويشهد له قول ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ يسبح على الراحلة»[2]؛ أي: يصلي عليها، المعنى: فلولا ما تقدم ليونس من الذكر والصلاة، ومن تسبيحه وهو في الحوت كما قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾؛ أي: لمكث في بطن الحوت، وما خرج ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: إلى يوم البعث.

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾؛ أي: طرحناه، والذي طرحَه الحوت،

---

(١) «جامع البيان» (١٩/ ٦٢٧).

(٢) البخاري (١٠٤٧)، ومسلم (٧٠٠).

وأضاف اللهُ النبذ إليه؛ لأنه كان بأمره تعالى ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ أي: في الأرض الخالية من الشجر والبناء ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ أي: وهو عليل لا قوة له، وقد رقَّ جلده ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾؛ أي: شجرة قَرَع؛ لأن ورقه كثير وناعم، فكانت هذه الشجرة تُظلُّه وتدفع عنه ما يؤذيه كالذباب؛ فقد قيل: إن شجرة القرع لا يقربها ذباب، وهذا من رحمة الله بيونس عليه السلام.

ثم ذكر تعالى ما كان له بعد شفائه من سقمه، وهو إرساله إلى قومه السابقين، وهو ما عليه جمهور المفسرين؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، ﴿أَوْ﴾ بمعنى: بل، والعرب تستعمل (أو) في مثل هذا المقام لتأكيد الخبر السابق ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾؛ أي: فاستجابوا ليونس وآمنوا لما رأوا العذاب الذي أوعدوا به، يبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٨]، فهذه الآيات تشهد بأن رسالة يونس الثانية هي إتمام لرسالته الأولى، ووجه ذلك: أنه رتَّب إيمانهم على رؤية العذاب ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾؛ أي: بالحياة الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى حين انقضاء آجالهم.

ولم يختم اللهُ قصة لوط ويونس بما ختم به القصص السابقة قصة نوح ومن بعده بقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾، وللمفسرين في ذلك كلام، وأحسن ما ذكر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن كلًّا من لوط ويونس عليهما السلام صدر منه ما اقتضى نزوله عن مرتبة مَن قبله من الأنبياء ممَّن ذكر في السورة؛ فلوط ذكر الله عنه قوله لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، وقال فيه الرسول ﷺ: «**يرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما يونس فقد أخبر اللهُ عنه أنه ذهب من قومه مغاضبًا، فظن أن لن يُقدر عليه، وقال اللهُ لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وتفاضُل الأنبياء معلوم بالضرورة لدلالة القرآن عليه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، ولعل هذا أجود ما قيل في الجواب؛ لأن ما عداه لم يسلم من اعتراض وإيراد؛ كالجواب الذي ذكره البيضاوي ومَن تبعه. والله أعلم بالصواب.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أنَّ مِن رسل الله مِن بني إسرائيل يونس عليه السلام، وهو ذو النون.

٢ ـ ابتلاؤه بتكذيب قومه حتى أغضبوه، فهرب منهم، فركب البحر، فابتُلي بإلقائه والتقام الحوت له.

٣ ـ دعاؤه ربَّه وتسبيحه له وهو في بطن الحوت في ظلمات.

٤ ـ أن سبب نجاته تسبيحُه لربه.

٥ ـ أنه كان كثير الذكر لربه والصلاة قبل البلاء؛ لقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾.

٦ ـ أن الطاعات السابقة سبب للخروج من المضايق.

٧ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[(١)].

٨ ـ فيها شاهد لقصة أصحاب الغار الثلاثة[(٢)].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٨٠٣) وصححه المحققون، والترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (١٠٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

٩ ـ توسُّل يونس إلى الله بالتوحيد، واعترافه بظلم نفسه.

١٠ ـ أن صغائر الذنوب قد تسمَّى ظلمًا.

١١ ـ أن الرسل غير معصومين من الصغائر، ومع ذلك فلا يجوز الطعن فيهم.

١٢ ـ أن المؤاخذة على المخالفة قد تقع على الخاصة، وتكون تأديبًا.

١٣ ـ مشروعية القُرعة في تعيين الأحقِّ عند التساوي والمشاحَّة.

١٤ ـ فيها شاهد لقاعدة: (ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما).

١٥ ـ حبُّ الله الإعذار؛ لقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ ليبيِّن أنه لم يَبتل يونس إلا بسبب ما يُلام عليه.

١٦ ـ أن من آيات الله الخارقة بقاء يونس حيًّا في بطن الحوت؛ مع انقطاع أسباب الحياة من الغذاء والهواء.

١٧ ـ الإرشاد إلى اعتبار الأسباب.

١٨ ـ أن الأسباب الطبيعيَّة محكومة بقدرة الله ومشيئته.

١٩ ـ أن التوحيد واللَّجأ إلى الله من أعظم أسباب النجاة من الهلاك.

٢٠ ـ رحمة الله بنبيِّه يونس عليه السلام؛ إذْ سخَّر اللهُ له الحوت حتى ألقاه من بطنه في العراء، ثم أنبت عليه شجرة من يقطين تُظلُّه وتقيه ما يؤذيه من ذباب وغيره.

٢١ ـ الإرشاد إلى عدم اليأس من الشفاء، مهما بلغ المرض من الشدة وتطاول الزمان.

٢٢ ـ إثبات البعث.

٢٣ ـ إرسال يونس إلى قومه مرة أخرى.

٢٤ ـ أن قومه كانوا كثيرين، وأن عددهم يبلغ مئة ألف على الأقل.

٢٥ ـ أن قومه آمنوا به بعد عودته إليهم.

٢٦ ـ أنهم أُمهِلوا بسبب إيمانهم بعد أن كاد العذاب ينزل بهم.

٢٧ ـ أن النجاة من أسباب الهلكة لا تستلزم النجاة من الموت؛ فإنه لا بد منه ولو تأخر.

٢٨ ـ أن الإيمان والعمل الصالح سبب لطول العمر.

٢٩ ـ جواز الإحصاء السكاني وغيره؛ لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾، ويشهد له قوله ﷺ: «**أحصوا لي كم يلفظ الإسلام...**» الحديث[1].

٣٠ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على التعظيم؛ لقوله: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٤٩) عن حذيفة رضي الله عنه.

ولما ذكر تعالى من أخبار الأمم السابقة ما فيه عبرة لكل معتبر، رجع الكلام إلى الردِّ على كفار مكة؛ **فقال سبحانه:**

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ أمرَ الله نبيَّه ﷺ أن يسأل المشركين المفترين على الله عن قولهم: الملائكة بنات الله، سؤالَ توبيخ وتسفيه لأحلامهم، قائلا: أللهِ البناتُ ولكم البنون؟! ثم إبطالَ جميع الحجج الحسِّيَّة والعقليَّة والشرعيَّة المحتملَة على هذه الفرية؛ فقال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾، وقال: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾، وقال: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والفاء هي الفصيحة؛ أي: إذا علموا ما تقدم من براهين التوحيد ودلائل القدرة فاستفتهم؛ أي: فاسأل المشركين المدَّعين لله البنات سؤال إنكار وتوبيخ، إظهارًا لجهلهم وسفَّههم، لا بمعنى الرجوع إلى فتياهم ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ أي قل لهم: أتجعلون لله البنات، وهي الملائكة؛ لأنهم في اعتقاد المشركين إناث، وتختارون لأنفسكم البنين؟! فلم يكتفوا بإثبات الولد لله ـ قبَّحهم الله ـ بل أثبتوا له الناقص من النوعين، وهي

الأنثى التي لا يرضى بها أدناهم، وهي القِسمة الضِّيزى التي ذكرها الله في قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

ثم ذكر ما يُبطل مقالتهم بطريق القِسمة العقلية؛ لأن طريق العلم إما الحِسُّ وإما الخبرُ وإما النظرُ؛ فأما الحسُّ فمفقود؛ لأنهم ما شاهدوا كيفية خلق الملائكة، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾، ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة المفسَّرة بـ (بل) والهمزة التي يُراد بها الإنكار؛ تكذيبًا لهم؛ أي: لم يشهدوا خلق الملائكة، فكيف يحكمون عليهم بأنهم إناث؟!

وأما الخبر فمفقود أيضًا؛ لأن الخبر لا يُفيد العلم إلا إذا كان المخبِر صادقًا، وهؤلاء كذَّابون، لم يقم على صدقهم دليل، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾، ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه وإيقاظ لما يأتي بعده و﴿مِّنْ﴾ سببية؛ أي: ألا إنهم بسبب كذبهم المتأصِّل في نفوسهم ليقولون ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: بزعمهم أن الملائكة بنات الله ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يقولون، والجملة مؤكَّدة بـ (إنَّ) واللام، وهي نفسها تأكيد لقوله: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾، فكثرة المؤكِّدات لإظهار كذبهم وظهور دلائل التوحيد؛ فالله واحد أحد صمد، لم يلد ولم يولد.

وأما النظر فمفقود أيضًا، وذلك من وجهين:

الأول: أن العقل يقتضي فساد قولهم؛ لأنه تعالى أكملُ الموجودات، فكلُّ كمال فالله أحقُّ به؛ فلا يليق بالأكمل أن يكون له الأقل في نظرهم، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾، ﴿ٱصْطَفَىٰ﴾؛ أي: أختار، أصلها: أاصطفى، حُذفت همزة الفعل تخفيفًا، وبقيت همزة الاستفهام المفيدة للإنكار والاستبعاد؛ أي: هل اختار اللهُ لنفسه البنات كما تزعمون؟! ﴿مَا لَكُمْ﴾؛ أي: أيُّ شيء حصل لعقولكم؟!

﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ أي: كيف تحكمون هذا الحكم الجائر الفاسد؟! ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الفاء عطف على محذوف؛ أي: أتقولون ذلك فلا تتذكرون أنه باطل وضلال.

الثاني: عدم الدليل على صحة قولهم، وإليه يُشير قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بل ألَكم حجة واضحة تظهر صدق ما تدعونه؟! أي: ليس لهم ذلك، ولهذا قال تعالى معجِّزًا لهم: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾؛ أي: فأتوا بكتاب من عند الله يشهد لقولكم؛ لأن السلطان المبين لا يكون إلا بطريق الوحي ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: إن كنتم صادقين فأتوا بكتاب، وهذا زيادة في تعجيزهم وإظهار كذبهم، والاستفهامات الخمسة للتسفيه والتجهيل، والتوبيخ والتعجُّب.

تضمَّنت الآياتُ إنكارَ الله عليهم القِسمة، وهو كون البنات لله والبنين لهم، ثم أنكر تعالى عليهم جعلهم الملائكة إناثًا، ثم أنكر عليهم مطلق الولادة لله.

هذا؛ وإن ادعاء الولد لله من أعظم الإثم؛ لأنه يستلزم أمورًا ممتنعة على الله تعالى:

أحدها: التجزُّؤ؛ فإنه تعالى أحد صمد.

الثاني: الحدوث، والله تعالى هو الأول الذي لم يزل، فهو قديم لا بداية له.

الثالث: وجود النظير والشَّبيه، والله لا ند له ولا شبيه له، ولم يكن له كفوًا أحد.

الرابع: الحاجة، والله هو الغنيُّ بذاته عن كل ما سواه، ولهذا ردَّ اللهُ على المشركين بذلك؛ فقال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]،

تعالى اللهُ عمَّا يقول الكافرون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

الفوائد والأحكام:

١ ـ مشروعية مناظرة المبطلين بإقامة الحجج على الحق المبين، وإبطال حججهم، وبيان امتناع أن يكون للباطل حجة صحيحة يتأيَّد بها عند المناظرين.

٢ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٣ ـ تنزيه الله تعالى عن الولد بنات أو بنين.

٤ ـ أن كلَّ كمال فالله أولى به.

٥ ـ سَفَه المشركين بتنقُّص رب العالمين.

٦ ـ فساد عقولهم حتى نسبوا إلى الله من الولد ما لا يرضونه لأنفسهم.

٧ ـ جور المشركين في هذه القِسمة.

٨ ـ عِظم هذه الفرية عند الله، ولهذا كثر الردُّ عليهم في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩١].

٩ ـ أنه لا حجَّة للمشركين على هذه الفرية من عقل ولا شرع؛ بل الحجج العقلية والشرعية كلُّها تدل على بُطلانها وسفاهة عقول المفترين لها.

١٠ ـ الحكم على المشركين بالكذب حكمًا مؤكَّدًا.

١١ ـ إثبات وجود الملائكة.

١٢ ـ أن الملائكة مخلوقون.

١٣ ـ أن الله خالق الملائكة.

١٤ ـ أن من طرق العلم الحسَّ والعقلَ والسمعَ؛ أي: النقل.

١٥ ـ مطالبة الخصم بحجته، وإن كان عدوًّا.

١٦ ـ أن الحجة الصحيحة تجعل لصاحبها تسلُّطًا على خصمه.

١٧ ـ أن كلَّ دعوى لا تقوم عليها حجة فهي باطلة.

١٨ ـ توبيخ الغافلين بعدم التذكُّر وذمُّهم.

١٩ ـ أن من ادَّعى بينة طولب بإحضارها.

٢٠ ـ أن الكلام في الغيبيات المعوَّلُ فيه على خبر الرسل.

٢١ ـ إبطال قول النصارى بأن المسيح ابن الله، وقول اليهود بأن عزيرًا ابن الله، وأنهم كاذبون.

﴿ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ ذكرَ فرية أخرى من كذب المشركين على الله، وهي أنهم جعلوا بينه وبين الجِنَّة نسبًا، وهو نسب المصاهرة، فعلى قول المشركين الباطل أن الملائكة بنات الله، وأُمُّهم من الجِنِّ، تعالى اللهُ عن قولهم علوًّا كبيرًا، وأخبر تعالى أن الجنَّ قد علموا أن المشركين سيُحضَرون للحساب والجزاء، ثم سبَّح تعالى نفسه عن كل ما وصفه به المشركون وافتروه عليه كنسبة الولد إليه، حاشا ما يصفه به عبادُه المخلصون.

ثم أخبر تعالى عن عجز المشركين ومعبوداتهم عن صدِّ الناس عن اتباع الرسول إلا من سبق القضاءُ عليه بالشقاء، وصار من أهل الجحيم، ثم أخبر عن قول الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾، ثم أخبر تعالى عن دعوى المشركين أن لو جاءهم ذكر من الله لكانوا عباد الله المخلصين، وقد كذَبوا في زعمهم، فقد جاءهم الرسولُ بالذكر، فكفروا به فسوف يعلمون.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾؛ أي: وجعل المشركون بين الله والجِنِّ صلة بالمصاهرة، وذلك في قولهم: إن الملائكة بنات الله من سَرَوات الجن؛ أي: ساداتهم، يعني: أن الله ـ تعالى الله عن قولهم ـ تزوج من الجنِّ فولدت له الجنُّ الملائكة، فجعلوا بهذا القول نسبة بين الله وبين الجنِّ ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: علمت الجِنَّة إن هؤلاء المشركين لمحضَرون في النار؛ لكذبهم وافترائهم، وهذا من زيادة توبيخ المشركين وتكذيبهم؛ فكأنه يُقال لهم: إن هؤلاء الجن الذين عظمتموهم يعلمون سوء خاتمتكم، وأن مثواكم النار.

وذهب طائفةٌ من المفسرين إلى أن الجِنَّة هنا بمعنى: الملائكة، وذلك غير صحيح؛ لأن هذا اللفظ في القرآن يُراد به الجِنُّ، ولا يُطلق على الملائكة، قال تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٥، ٦]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، وقال: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨].

ويضعِّف تفسيرَ الجنة بالملائكة أن هذا التفسير يؤدي إلى التكرار؛ لأنه تقدّم ذكر دعوى المشركين أن الملائكة بنات الله في قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ اللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: تنزيهًا لله عن كلِّ ما يصفه المشركون من الولد والنسب وغير ذلك من صفات النقص ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾؛ أي: لكنْ عبادُ الله المخلَصون برآء من هذا الافتراء، فلم يصفوه بما وصفه به أولئك الظالمون المفترون.

قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا رجوع إلى خطاب المشركين؛ أي: فإنكم ـ أيها المشركون ـ أنتم وما تعبدون من الآلهة المزعومة ﴿مَا

أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ الفاتن هو المفسد المضل، والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على الله، و(على) بمعنى: عن، المعنى: ما أنتم عن الإيمان بالله بصادِّين أحدًا إلا من كُتب عليه الشقاء، وفي هذا تيئيس لهم، وقطع لأطماعهم في إغواء المؤمنين ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: إلا من سيصلى النار ويقاسي حرَّها، والصَّالي كالقاضي، حُذفت الياء رسمًا للتخفيف، أصله من الصَّلْي، وهو الدخول في النار.

ثم أخبر اللهُ باعتراف الملائكة بالعبودية لله رب العالمين بقولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ المقام: مكان القيام بالعبادة والعمل؛ أي: وما منا أحدٌ إلا له مقام معلوم في السماء للعبادة، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، فنحن عبيده تعالى، كما قال ﷺ: «**أَطَّتِ السماء وحقَّ لها أن تئط؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد**»[1]، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾؛ أي: القائمون للصلاة صفوفًا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾؛ أي: المنزِّهون لله عمَّا ما لا يليق به سبحانه، ومن ذلك ما نسبه المشركون إليه تعالى، والتسبيح واقع من الملائكة بالقول.

ومثل هذه الآيات في ورود كلام الملائكة معترضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية [مريم: ٦٤]، فقائل ذلك جبريل عليه السلام، كما أخرج البخاريُّ بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟**»، فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤]»[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢١٥١٦) واللفظ له، والترمذي (٢٣١٢) وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه (٤١٩٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٥١٠) و(٤/ ٥٤٤)، وحسنه محققو المسند، والألباني.

(٢) البخاري (٤٤٥٤).

ثم أخبر تعالى عن قول المشركين قبل مبعث النبي ﷺ؛ فقال سبحانه: ﴿وَإِن كَانُوا﴾، ﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة؛ أي: وإنَّ كفار مكة ﴿لَيَقُولُونَ﴾ كذبًا وتلبيسًا ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: لو أنَّ عندنا كتابًا كما كان للأولين؛ أي: كاليهود والنصارى ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾؛ أي: لآمنَّا وأخلصنا العبادة لله، وإنهم لكاذبون؛ فقد أنزل اللهُ عليهم أهدى كتاب، وأرسل إليهم أفضل رسول، ولكنهم لم يؤمنوا، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾؛ أي: فكفروا بالذكر لمَّا جاءهم، وجحدوا الرسالة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فسوف يعلمون عاقبة كفرهم حين ينزل بهم العذاب، وهذا تهديد لهم، وتسلية للنبي ﷺ.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ التنوُّع في افتراءات المشركين على الله.

٢ ـ افتراء المشركين النسب بين الله والجِنِّ؛ فإن كان المراد بالجِنِّ الملائكة فهو نسب الولادة الذي تقدَّم، وإن كان المراد بالجِنَّة الجنَّ، فهو نسب المصاهرة، كما جاء عن بعض المفسرين من السلف.

٣ ـ علم الجِنِّ بأن المشركين المفترين محضَرون في العذاب.

٤ ـ تنزيه الله نفسه عمَّا يصفه به المشركون والجاهلون.

٥ ـ أن صفات الله تكون ثبوتيَّة وسلبيَّة.

٦ ـ أن الله موصوف بما يصفه به عبادُه المخلصون من الرُّسُل وأتباعهم.

٧ ـ تضمُّن القرآن لأنواع الكلام من الوعد والوعيد، والمدح والذم، والخبر والإنشاء.

٨ ـ فيه شاهد لقوله تعالى في آخر السورة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]، فسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك.

٩ ـ عجز المشركين ومعبوداتهم عن صدِّ الرسول إلا من حَقَّت عليه كلمة العذاب.

١٠ ـ إثبات النار.

١١ ـ أن للملائكة مقامات معلومة لعبادة ربهم.

١٢ ـ أن الملائكة يُصلون صفوفًا.

١٣ ـ فيها شاهد لأول السورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١].

١٤ ـ أن من عبادة الملائكة لله الصلاة والتسبيح.

١٥ ـ أن دأب الملائكة الصلاة والتسبيح.

١٦ ـ أن الملائكة ذوو عقول، ولهم إرادة.

١٧ ـ الإرشاد إلى حسن الترتيب والتنظيم في العبادة.

١٨ ـ ادعاء المشركين كذبًا أن لو جاءهم ذكر من ربهم لآمنوا، وكانوا من عباد الله المخلَصين.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢].

٢١ ـ تكذيب الله لهم في دعواهم بقوله: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

٢٢ ـ تهديد الله لهم بسوء العاقبة بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

٢٣ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿فَكَفَرُوا بِهِۦ﴾، فأضاف الكفر إليهم.

٢٤ ـ التناسُب بين آخر السورة وأولها؛ لقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾، وفي آخرها: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾.

ولما هدَّد الكفار بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أتبع هذا الوعيد بوعد الرُّسُل والمؤمنين بالنصر والغلبة؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بسبْق كلمة الله بنصر رُسُله وغلبة جنده، وأمرَ الله نبيَّه ﷺ بالإعراض عن المكذبين إلى حين، وأمرَه بإنظارهم وانتظار ما يحل بهم، فسوف يرونه عيانًا، وتوبيخَهم على استعجالهم العذاب، وأخبر تعالى أن العذاب إذا نزل في المكان الذي يقطنونه فإذن يكون صباحُهم صباحَ سوء؛ لما يصيبهم من أنواع الشر، ثم أكَّد اللهُ الأمر بالإعراض عنهم، وإنظارهم، وانتظار نزول العذاب بهم، ثم سبَّح نفسه تعالى عمَّا يصفه به المفترون والمشركون، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما يقولونه من الإفك والشرك، ثم حمِد نفسه تعالى على ما يستحقه من الأسماء والصفات، وما له من بديع المخلوقات.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾؛ أي: سبق قضاؤنا ووعْدنا، فالمراد بالكلمة هنا: الكلمة الكونية التي تفسَّر بالقضاء والحُكم ﴿لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: لجميع رسلنا، ومنهم خاتم النبيين محمد ﷺ، ففي الآية

بشارة له بالنصر على الأعداء عليه الصلاة والسلام، ثم بيَّن تعالى هذه الكلمة بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾؛ أي: المنصورون على أعدائهم في الدنيا بالحجة والبرهان، وظهورهم عليهم بالسيف والسِّنان، كما وقع في غزوة بدر، ولا يرِد على هذا ظهورُ الكفار على المؤمنين في بعض الأحيان لحكمة يعلمها الله، كما أنه تعالى ينصر أولياءه في الآخرة فيدخلهم الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ الجند هم الأنصار والأعوان، والمراد هنا: الرُّسُل وأتباعهم المؤمنون؛ أي: وإن حزبنا لهم الغالبون لأعدائهم، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وأضافهم اللهُ إلى نفسه في قوله: ﴿جُندَنَا﴾ تشريفًا لهم، وتنويهًا بفضلهم؛ حين قاموا بنصر دينه، وأكِّدت هذه الآية والتي قبلها بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام؛ لما تضمَّنتاه من الوعد بالنصر والغلبة.

ثم أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فأعرض عن كفار مكة المعاندين ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت معلوم ينزل عليهم فيه العذاب؛ إما بالقتل والأسر بأيدي المؤمنين حين يأذن اللهُ بالقتال، كما قال سبحانه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، أو بغير ذلك من أنواع العذاب، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾؛ أي: انظر إليهم إذا حلَّ بهم العذاب، فسترى ما يسرك، وفي الأمر بإبصارهم تنبيه على أن العذاب الموعود كائن لا مَحالة ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: فسيرون عيانًا ما يسوؤهم، وهذا تهديد لهم شديد.

ولما كان النبيُّ ﷺ يُنذر المشركين عذاب الله كانوا يسخرون منه، ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ وسألوا اللهَ أن يمطر عليهم

حجارة من السماء؛ استخفافًا منهم بالعذاب، فقال تعالى مُوبِّخًا لهم ومنكرًا عليهم: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ أي: أسخِروا فبعذابنا يستعجلون؟ أي: يستعجلون وقوعه، فيا لله ما أشدَّ سَفَههم!

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾؛ أي: فإذا نزل العذابُ بهم، والعرب يستعملون الساحة فيما يرد على الإنسان نفسه ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: فبئس الصباح صباحُهم، شبَّه العذاب بجيش ينزل بفِنائهم فيدمرهم ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كرَّر الأمر بالتولي والإبصار؛ تأكيدًا للوعد والوعيد، فهو تسلية بعد تسلية، ووعيد بعد وعيد.

قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل مَن يصلح للخطاب؛ أي: تنزيهًا لربك الذي خلقك ـ أيها الإنسان ـ وأحسن إليك برعايته وتربيته ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾؛ أي: صاحب الغلبة والقوة والجبروت والكبرياء ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: عمَّا ينعته به المفترون من صفات النقص، وقد حُكي منها أشياء كثيرة في هذه السورة، فهو تنزيه من الله لنفسه، وتعليم للمؤمنين أن يلازموا ذلك ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: سلامٌ عليهم من الله ومن كل عبد صالح، جزاء صدقهم ونصحهم وصبرهم على أقوامهم، وهو تسليم على جميع الرسل بعد تخصيص بعضهم بالسلام ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الثناء الكامل لله وحده على كمال أوصافه، وكمال إنعامه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: خالق الخلق أجمعين.

وما أحسن ختام هذه السورة؛ إذْ خُتمت بمجامع التحميد والتنزيه؛ إيماءً إلى ما حَوتْه من تنزيه الله وثنائه على نفسه المقدسة، وتأييده لرسله؛ فإنه تعالى اصطفاهم ووفَّقهم لما اكتسبوا به الثناء الجميل والثواب الجزيل، فسبحان من تفرَّد بالعزة والكمال وأعطى وأثنى.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر الله نفسَه بصيغة الجمع الدالة على التعظيم.

٢ ـ سبق كلمة الله بنصر المرسلين، وبالغلبة لجند الله المجاهدين.

٣ ـ إثبات الكلام لله ﷻ.

٤ ـ إثبات الكلمات الكونية.

٥ ـ إثبات القدر السابق.

٦ ـ إثبات العبودية الخاصة.

٧ ـ أن الرسل عباد الله؛ فلا يجوز اتخاذ أحد منهم إلـٰهًا.

٨ ـ بشارة الرسول ﷺ والمؤمنين بالنصر والغلبة.

٩ ـ فضل الجهاد والمجاهدين.

١٠ ـ أمر النبيِّ ﷺ بالإعراض عن المشركين، وإنظارهم، وانتظار ما يحل بهم من العذاب المدمِّر.

١١ ـ استخفاف المشركين بعذاب الله؛ لجهلهم بالله.

١٢ ـ أن العذاب حين ينزل بهم يرونه عيانًا.

١٣ ـ أن العذاب ينزل بالكفار مصبحين.

١٤ ـ وصف صباح العذاب بالسُّوء.

١٥ ـ أن العذاب لا يكون إلا بعد الإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

١٦ ـ أن أشدَّ ما يكون العذاب على المنذَرين من الكافرين.

١٧ ـ تنويع الكلام لتأكيد المعنى؛ لقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ و﴿وَأَبْصِرْ﴾.

١٨ ـ أن من أسماء الله رب العزة.

١٩ ـ إثبات صفة العزة لله.

٢٠ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٢١ ـ تنزيه الله نفسه عمَّا يصفه به المشركون والجاهلون.

٢٢ ـ سلام الله على جميع المرسلين.

٢٣ ـ أن الله يعمُّ بسلامه ويخصُّ به مَن شاء مِن رسله، والمصطَفين من عباده.

٢٤ ـ حمد الله نفسه مُثنيًا على نفسه، ومعلمًا لعباده المؤمنين.

٢٥ ـ إثبات الربوبية العامة.

سورة (صٓ)

هذه السورة مكية، يدلُّ لذلك أمور:

الأول: افتتاحها بحرف من الحروف المقطعة.

الثاني: تضمُّنها لأقوال المشركين.

الثالث: تضمُّنها لقصص الأنبياء، مجملًا أو مفصَّلًا.

الرابع: تضمُّنها الوعد والوعيد بذكر الجنة والنار.

وآيات هذه السورة ثمان وثمانون، وقد اشتملت آياتُها الأولى على القَسَم بالقرآن، وتهديد المشركين، وذكر بعض أقوالهم القبيحة، وذكر ملكوت الله في السماء والأرض، وذكر عاقبة الأمم المكذبة؛ من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقوم لوط وأصحاب الأيكة، فكلهم كذبوا الرسل، وحلَّ بهم عقابُ الله، ثم تهديد المشركين بالصيحة، واستعجالهم العذاب، ثم تصبير النبي ﷺ على أقوال المشركين، وتسليته بذكر بعض قصص النبيين: داود وسليمان وأيوب وغيرهم.

واشتملت السورةُ على ذكر ما أعد اللهُ للمؤمنين من النعيم المقيم، وما أعده للكافرين من العذاب الأليم، وخُتمت السورة بقصة آدم وإبليس، وبحوار مع المشركين وبالتهديد، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾.

فتبيَّن أن مَدار هذه السورة كنظائرها من السورة المكية؛ على الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث، فمن الآيات في التوحيد قوله

تعالى: ﴿...وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾.

ومن آيات الربوبية قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [٩] إلى قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [١١].

ومن الآيات في شأن النبوة قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [١٢] إلى قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [١٧] إلى قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [٤١] إلى قوله: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [٤٨].

ومن الآيات في التوحيد والنبوَّة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [٦٥] إلى قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [٦٩].

ومن الآيات في اليوم الآخر قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [٤٩] إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [٦٤].

ومن الآيات في النبوَّة واليوم الآخر قوله ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [٨٦] إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [٨٨].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ القَسَم من الله بالقرآن موصوفًا بالذكر، وتكبُّر الكفار عن الإيمان به، مع مُشاقَّتهم لله ورسوله، وتهديدهم بالإهلاك، سُنَّتَه تعالى في الماضين من المكذبين الذين كانوا ينادُون طلبًا للنجاة، ولا محيص لهم ممَّا حلَّ بهم، ثم أخبر تعالى عن عجب الكفار من بعث رسول إليهم منهم، وقال الكافرون: هذا ساحر كذَّاب، كما عجبوا من دعوة الرسول إلى توحيد الإلٰه.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿صٓ﴾ هذا من الحروف المقطَّعة في أوائل السور، وينطق: صادْ بسكون الدال، وتقدم القولُ في الحروف المقطعة في أول سورة (يس)، وذكرنا أنها ذُكرت على سبيل التحدي والتنبيه على إعجاز القرآن؛ أي: أن هذا الكتاب العظيم مؤلَّف من هذه الحروف التي بها يتكلمون، ومع ذلك فلا يستطيعون أن يأتوا بمثله، وهذا إفحام لهم، ودعوة لهم إلى الإيمان، لو كانوا يعقلون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ قَسَم من الله بالقرآن؛ أي: أُقسِم بالقرآن ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: صاحبِ الشرف العالي والشأن العظيم، أو ذي

التذكير والموعظة، فالقرآن أعظم واعظ ومذكِّر بالله، و(ذو) أكثر استعمالها في العربية أنها لا تضاف إلا لِما له شأن، وجواب القَسَم محذوف؛ لدلالة التحدي عليه، تقديره: والقرآنِ ذي الذكر إنَّه لحقٌّ، فواجب أن يؤمن الناسُ به، وقال بعض المفسرين: تقدير الجواب: إنهم ليبعثُنَّ، وإنك لنذير مبين، بدلالة ما بعده عليه.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وانتقال من كلام إلى آخر، يعني: أن عدم إيمان الكفار لم ينشأ عن قصور في القرآن في شرفه وتذكيره؛ بل لإصرارهم على الكفر والعناد ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم قريش ﴿فِى عِزَّةٍ﴾؛ أي: في استكبار شديد عن الإيمان، فهي عزة مذمومة ﴿وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: ومشاقة لله ورسوله ﷺ، وهي المعاداة والمخالفة.

ثم قال تعالى مخوِّفًا لهم ومحذِّرا: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، ﴿كَمْ﴾ خبرية للتكثير، والقرن هم الجيل من الناس، سمُّوا بذلك؛ لأنهم مقترنون في زمان واحد. المعنى: أهلكنا كثيرًا من الأمم المكذبين قبل هؤلاء فلم يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم ﴿فَنَادَوا۟﴾؛ أي: استغاثوا حين نزل بهم العذاب ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ أي: ليس الوقت وقت فرار ونجاة، فـ ﴿لَاتَ﴾ كلمة مركَّبة من (لا) النافية بمعنى: ليس، وتاء التأنيث التي تتصل بالحرف لتأكيده، كما يقال: رُبَّتَ وثُمَّتَ، وأصلهما: رُبَّ وثُمَّ، فـ ﴿لَاتَ﴾ هنا لتأكيد النفي.

ثم ذكر تعالى بعض أقوال المشركين القبيحة؛ فقال سبحانه: ﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾؛ أي: أظهر هؤلاء المشركون العَجب ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: مِن أن جاءهم رسول منهم جنسًا ونسبًا؛ فهو بشر مثلهم يخاطبهم ويفهمون قوله، ومِن قبيلتهم يعرفون صدقه وأمانته؛ فهو يدعوهم إلى الله

ويخوِّفهم عذابَه، فبدلًا من أن يصدقوا ويستجيبوا أعرضوا وكذَّبوا ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لم يقل: وقالوا، فهو من وضع الظاهر موضع المضمَر؛ لذمِّهم بالكفر وبيان السبب في تكذيبهم ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: محمد ﷺ ﴿سَٰحِرٌ﴾؛ أي: لما جاءهم به من المعجزات، وأعظمها القرآن المؤثر في النفوس والقلوب ﴿كَذَّابٌ﴾؛ أي: يكذب على الله فيما يدعيه من الرسالة، وفيما ينسب إلى الله من الكلم، فقابلوا بالشتائم الحجج والبراهين، فعل السفهاء والمجانين.

ثم ذكر تعالى إنكارهم للتوحيد؛ فقال سبحانه: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؛ أي: أجعل ما يُعبد معبودًا واحدًا؟ وذلك في قول النبي ﷺ لهم: لا إله إلا الله، وفي دعوته إياهم إلى إفراد الله بالعبادة، فالجعل بمعنى التصيير، وليس تصييرًا في الخارج؛ بل في القول والتسمية والاعتقاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩].

والاستفهام في الآية للإنكار والتعجُّب؛ وقد أكدوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ أي: الذي جاء به محمد ﷺ ودعا إليه ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾؛ أي: مُتناهٍ في العَجب، فـ ﴿عُجَابٌ﴾ أبلغ من عجيب، كما يقال: طُوَال وكُبَار، وسبب عجبهم أن التوحيد يخالف ما أَلِفوه وورثوه عن آبائهم من الشرك.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أشهر أسماء الكتاب العزيز: القرآن، وقد ورد ذكرُه بهذا الاسم في القرآن ثمانيًا وستين مرة.

٢ ـ عِظم شأن القرآن عند الله؛ إذ أقسم به، ونعته بأنه ذو الذكر.

٣ ـ الإشارة إلى إعجاز القرآن والتحدي به.

٤ ـ أن من كلام الله الإقسام بما شاء على ما شاء.

٥ ـ تضمُّن القرآن للذكر؛ أي: التذكير، ولهذا كان من أسمائه: الذِّكر.

٦ ـ إقامة الله الحجة على الكفار بإرسال المنذِرين.

٧ ـ أن من مقاصد إرسال الرسل إنذارَ الكافرين.

٨ ـ أن من سُنَّة الله وحكمته أن يرسل إلى البشر رسولًا من جنسهم.

٩ ـ عناد الكفار للقرآن بالتكذيب والاستهزاء، استكبارًا ومشاقَّة.

١٠ ـ كثرة القرون المهلَكة بتكذيب الرسل.

١١ ـ تهديد المشركين بذكر كثرة الهالكين.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

١٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

١٤ ـ أنهم كانوا ينادُون عند نزول العذاب بهم؛ كقولهم: يا ويلنا.

١٥ ـ أنهم لا مفرَّ لهم من عذاب الله إذا حلَّ بهم.

١٦ ـ البداءة في الدعوة بالأهمِّ، وأهمُّ أصول الدين التوحيد.

١٧ ـ عجب الكفار من أمرين: بعث رسول منهم، ودعوته إلى توحيد الإلٰهية.

١٨ ـ جحد المشركين لتوحيد الإلٰهية، ولذا عجبوا من الرسول دعوته إليه.

١٩ ـ أنَّ مِن سَفَه الكفار رميَ الرسول بالسِّحر والكذب.

ثم ذكر تعالى تلبيس الكُبراء على العامة؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

▣ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن إعراض المشركين عن النبي ﷺ، وبعضَ أقوالهم الدالة على إصرارهم على الشرك والتكذيب، وإنكارَ الله عليهم، وبيانَ عجزهم، فلا يملكون الخزائن التي منها العطاء، ولا يملكون ما به القوة؛ بل هم ضعفاء، مع تحديهم أن يرتقوا إلى السماء؛ فإنهم مهزومون، لا يستطيعون الوصول إليها.

▣ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: وانطلق كبارُهم وقادتُهم قائلين لأتباعهم: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ يحتمل أن المراد: المشي على الأقدام؛ أي: اتركوا هذا الرجل، وسيروا بنا، ويحتمل أن يُراد بالمشي: المضي على الدِّين؛ أي: امضوا على طريقتكم وطريقة آبائكم، ويؤيد الأول ذكرُ الانطلاق، ويؤيد الثاني قوله: ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾؛ أي: واثبتوا على عبادة آلهتكم ولا تبالوا بمن نهاكم عن ذلك ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر؛ أي: شيءٌ يريده محمد ليكون سيِّدًا وزعيمًا، ويصرفكم عن دين آبائكم، يعنون أنه غير صادق في قوله، ولهذا أكَّدوا كلامهم

بقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه من التوحيد في دين آبائنا الأخير الذي ورثناه عنهم، ولا في الملة النصرانية التي هي آخر الملل، والنصارى ليسوا موحدين؛ بل يقولون بالتثليث ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾؛ أي: ما هذا إلا كذب مختلق؛ أي: مخترع.

ثم ذكر اللهُ شُبهة أخرى لهم في عدم الإيمان، وهي اختصاص النبي ﷺ بإنزال الذكر عليه من بينهم، ولا فضل له عليهم بزعمهم؛ فقال سبحانه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ الاستفهام للإنكار والتكذيب؛ أي: هل اختُص محمد من بيننا بشرف إنزال القرآن عليه، ونحن الرؤساء أحقُّ بذلك منه؟! وفي هذا بيان ما تنطوي عليه قلوبهم من الحسد للنبي ﷺ؛ إذ اصطفاه اللهُ بالنبوة، وخصَّه بإنزال القرآن عليه.

قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وانتقال؛ لبيان سبب إنكارهم؛ أي: ليس لهم حجة ولا برهان في هذا الإنكار؛ بل هم في حيرة وشك مُستحكم ﴿مِّن ذِكْرِيٓ﴾؛ أي: من القرآن، فمرة يقولون: سحر يؤثر، ويقولون مرة: إفك افتراه، وأساطير الأولين ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ إضراب آخر وانتقال لبيان أنَّ شَكَّهم سيزول إذا رأوا العذاب؛ أي: يقولون ذلك لأنهم لم يذوقوا عذابي بعدُ، وسيذوقونه حقًّا، و﴿عَذَابِ﴾ أصلها عذابي، حُذفت الياء للفاصلة.

ثم سفَّه تعالى المشركين على حسدهم؛ فقال سبحانه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾؛ أي: بل أيملكون خزائن رحمة الله حتى يعطوا من شاؤوا، ويختصوا بالنبوة من يريدون؟! والاستفهام للإنكار والتهكُّم؛ أي: ليس لهم ذلك؛ بل لله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: القوي الذي لا يُغلب ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾؛ أي: الكثير العطاء، فيهب ما يشاء مِن رزقه وفضله لمن يشاء

من عباده، ويختص بالنبوَّة من يشاء، وتذييل الآية بهذين الاسمين الكريمين مناسب لذكر خزائن الرحمة؛ فإن العزة مقتضى القوة والمُلك، والعطاء مقتضى الرحمة.

ولما سلب عنهم التصرُّف في الخزائن أتبعه نفي الملك ترقِّيًا في الإنكار؛ فقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: ليس لهم ذلك، وفيه إفحام لهم بنفي الأعلى بعد نفي الأدنى ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أمر تعجيز وتهكُّم؛ أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في المعارج التي توصلهم إلى السماء، ولْيدبِّروا أمر هذا العالم، ولْينزِلوا الوحي على من يختارون ﴿جُندٌ مَّا﴾ تنكير ﴿جُندٌ﴾ للتقليل والتحقير، و﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة؛ أي: ما هؤلاء إلا جندٌ حقيرٌ ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في المكان الذين يرتقون إليه إن قدروا عليه ﴿مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، ﴿مِّنَ﴾ للتبعيض؛ أي: مهزوم من جملة الكفار المتحزبين على الرسل، فدمَّرهم اللهُ تعالى، وفي الآية تهديد للمشركين، وتسلية للنبي ﷺ، وبشارة له وللمؤمنين بانتصارهم على المشركين، وقد وقع ذلك في بدر وفتح مكة وغيرهما، ولله الحمد.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أصل ضلال المشركين هم الأكابر؛ فإنهم يدْعُون أتباعهم إلى الشرك، وهم أول مُعارض للرسل.

٢ ـ أن الملأ يخشون على الأتباع من تأثير دعوة الرسول ﷺ.

٣ ـ وصيَّتهم أتباعهم بالصبر على دينهم.

٤ ـ أنه لا حجة للمشركين على جحد التوحيد إلا التقليد.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية [نوح: ٢٣].

٦ ـ دعواهم أن ما جاء به الرسول ﷺ محضُ اختلاق.

٧ ـ جحْدُهم أن يكون تقدَّمه مَن جاء بمثل دعوته.

٨ ـ دعواهم أنه لا فضل للنبي ﷺ عليهم؛ فكيف يُنزَّل عليه الذكر؟!

٩ ـ فيها شاهد لقول قوم صالح: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

١٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

١١ ـ إيمان المشركين بعلو الله تعالى؛ لقوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

١٢ ـ تشابُه أقوال الكفار في اعتراضهم على رسلهم.

١٣ ـ أن الباعث لهم على هذه الشُّبهة ـ وهي اختصاص النبي بالذكر ـ هو الشك.

١٤ ـ تهديد الله لهم بالعذاب الذي سيحل بهم من قريب.

١٥ ـ أن الذوق لا يختص بما يُحِسُّ الإنسان بفمه.

١٦ ـ أن المشركين فاقدون لأسباب القوة والغنى، فلا موجب لهذا الاستكبار إلا العناد والإصرار.

١٧ ـ أن خزائن الرحمة لله وحده.

١٨ ـ إثبات رحمة الله المخلوقة.

١٩ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾.

٢٠ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، العزيز والوهَّاب، وما دلَّا عليه من صِفَتي العزة والعطاء.

٢١ ـ أن بين السماوات والأرض مخلوقات عظيمة؛ لقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

٢٢ ـ تحدِّيهم أن يرتقوا في أسباب السماء.

٢٣ ـ أنهم لو راموا الصعود إلى السماء لارتدوا مهزومين خاسئين.

٢٤ ـ بُطلان دعوى كفار هذا العصر الوصول إلى القمر.

ولما هدَّد المشركين، ذكَر تعالى مصارع الغابرين من الطغاة المكذبين، تأكيدًا للتهديد؛ **فقال سبحانه:**

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن الأمم المكذبة لرسل الله، وما حلَّ بهم من العقاب، تهديدًا لمكذبي محمد ﷺ، وتسلية له، والإخبارَ عمَّا ينتظره هؤلاء المشركون من الصَّيحة التي تكون يوم القيامة، وهي النفخة الأولى، والإخبارَ عن قول المشركين استخفافًا بوعيد الله: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل كفار مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ أي: كذبوا نوحًا، وحُذف المفعول للعلم به، ونوح أول رسول من الله ﷻ، وقومه أول من ابتدع الشرك في الأرض، وقد لبث نوح يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا منه وتكذيبًا له حتى أخذهم الطوفانُ وهم ظالمون ﴿وَعَادٌ﴾؛ أي: وكذبت عاد، وهم من العرب العاربة البائدة، وهم أقدم الأمم التي عرفت آثارها في التاريخ، وكانت مساكنهم بالأحقاف، بين عُمان وحضرموت، وقد منحهم اللهُ قوة ونعمًا، ولكنهم كفروا نعمة الله، وكذبوا نبيَّهم هودًا ﵇، فأرسل اللهُ

عليهم الريح العقيم التي دمَّرتهم وتركتهم صرعى كأنهم أعجاز خاوية ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾؛ أي: وكذَّب فرعونُ وقومه، وفرعون ملك مصر، الذي كان في زمن موسى عليه السلام، وكان طاغيةً جبارًا عاتيًا في الكفر، وقال لقومه: ما علمت لكم من إلٰه غيري ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ وهي أوتاد تُدق له في الأرض فيعذب بها الناس.

قوله سبحانه: ﴿وَثَمُودُ﴾؛ أي: وكذَّبت ثمود، وهم قبيلة عربية بائدة، ومساكنهم بين المدينة والشام، وهم أصحاب الحِجر، وتسمَّى الآن مدائن صالح، وكانوا لقوتهم يتخذون من الجبال بيوتًا فينحتونها، أرسل اللهُ إليهم صالحًا عليه السلام فكذبوه، فأهلكهم اللهُ بالصيحة التي قطعت قلوبهم، فماتوا من فورهم ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾؛ أي: وكذَّب قومُ لوط نبيَّهم لوطًا عليه السلام، فلم يستجيبوا له فيما نهاهم عنه من فعل الفاحشة النكراء، فأمطر اللهُ عليهم حجارة من سجيل، وقلب اللهُ عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾؛ أي: وكذَّب أصحاب الأيكة؛ أي: الغَيضة، وهي الشجر الكثير الملتف بعضه ببعض، وهم قوم شعيب، وكانوا ذوي نعمة، ولكنهم كفروا بالله وسخروا من نبيِّهم، وقالوا له: ما نفقه كثيرًا ممَّا تقول، وهدَّدوه بالرجم، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾؛ أي: أولئك هم الأحزاب الذين تحزَّبوا على أنبيائهم؛ أي: تجمعوا على تكذيبهم وإيذائهم، فأهلكهم اللهُ تعالى على قوتهم وكثرتهم، وفي هذا تهديد لكفار مكة، وهم ـ من غير شك ـ أقلُّ من أولئك قوة وعددًا، وتسلية للنبي ﷺ، يعني: إن كذبك هؤلاء فقد كذبت قبلهم أمم.

قوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أفرد ﴿كَذَّبَ﴾ لمراعاة

لفظ ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: ما كلٌّ منهم إلا كذَّب رسوله الذي أرسل إليه، فأعاد ذكر التكذيب بطريق الحصر لتأكيده؛ فكأنهم لا صفة لهم إلا التكذيب، وقال بعض المفسرين: المعنى: أنَّ كلَّ أمَّة من تلك الأمم كذبت جميع الرسل؛ لأن تكذيب رسول واحد بمنزلة تكذيب جميع الرسل؛ لأن بعضهم يُصدِّق بعضًا؛ ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]؛ فجعل قوم نوح مكذبين لجميع الرسل، ولم يأتوا بعد، ومثله قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ولم يرسل إليهم إلا هود، ومثله قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]، وهذا القول أظهر؛ لما فيه من زيادة المعنى ولدلالة الآيات المتقدمة عليه، والتأسيس مقدم على التأكيد ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾؛ أي: فوجب عليهم عقابي وعذابي.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ شُروع في بيان عقاب كفار مكة بعد بيان عقاب أسلافهم من المكذبين؛ أي: وما ينتظر هؤلاء ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ وهي النفخة الأولى نفخة الصَّعق، وسمَّاها اللهُ صيحة لأن لها صوتًا عظيمًا ﴿وَٰحِدَةً﴾ تأكيد للوحدة؛ أي: صيحة واحدة لا أكثر من ذلك، فيُصعَق الخلائقُ في إثرها، وتلك نهاية الحياة الدنيا ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾؛ أي: ليس بعدها رجوع ولا إمهال، وإنما هو الحساب والجزاء، و﴿مِن﴾ حرف جر زائد للتنصيص على عموم النفي، فهؤلاء الكفار إن لم يعذبوا في الدنيا فسيعذبون في الآخرة، إذا نفخ في الصور، إن ماتوا على كفرهم.

ثم ذكر اللهُ استهزاءهم باليوم الآخر وتكذيبهم به؛ فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾؛ أي: نصيبنا من العذاب ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛

أي: ولا تؤخره إلى يوم الحساب والجزاء الذي يتوعدنا به محمد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من منهج القرآن ذكرَ قصص الأمم مجمَلة ومفصَّلة.

٢ ـ أن نوحًا عليه السلام أولُ الرسل، وقومه أولُ المكذبين.

٣ ـ أن عادًا كذَّبوا رسولهم، وهو هود عليه السلام.

٤ ـ التشابُه بين عاد وفرعون في التكبُّر، ولهذا فصَل بين عاد وثمود بذكر فرعون.

٥ ـ أن ثمود كذَّبوا رسولهم، وهو صالح عليه السلام.

٦ ـ أن قوم لوط كذَّبوا رسولهم لوطًا عليه السلام.

٧ ـ أن أصحاب الأيكة كذَّبوا رسولهم، وهو شعيب عليه السلام.

٨ ـ أن الحكم باعتبار الأغلب؛ فإن أقوام الرسل منهم مؤمنون.

٩ ـ أن كلَّ قوم من هذه الأمم مكذب لرسوله ولجميع الرسل.

١٠ ـ أن التكذيب سبب العقاب.

١١ ـ تهديد المشركين، وتسلية النبي ﷺ.

١٢ ـ أن من محسِّنات الكلام إعادة الخبر لبناء ما يتعلق به عليه؛ لقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾، فأعاد ذكر التكذيب لترتيب ذكر العقاب عليه.

١٣ ـ أن من محسِّنات الكلام الإجمال بعد التفصيل، حيث ذكر تكذيب جميعهم بعد ذكر تكذيب كلِّ أمة.

١٤ ـ وعيد الكفار بالصيحة.

١٥ ـ أن نفخة الصعق مطوَّلة.

١٦ ـ استخفاف الكفار بوعيد الله.

١٧ ـ أن من أسماء يوم القيامة يوم الحساب.

١٨ ـ إثبات الحساب.

١٩ ـ إقرار الكفار بربوبية الله.

❁ قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

❁ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ أمرَ الله نبيَّه ﷺ بالصبر على ما يقوله المشركون، وأمرَه بالتأسِّي بداود عليه السلام في كثرة العبادة والذكْر؛ لأن ذلك ممَّا يعين على الصبر، ثم ذكر ما أكرم اللهُ به نبيَّه داود عليه السلام من تسخير الجبال والطير يسبِّحن معه بالعشيِّ والإبكار، وما آتاه اللهُ من الملك والحكمة وفصل الخطاب.

❁ التفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: اصبر ـ أيها الرسول ـ على ما يقول المشركون من الكفر والتكذيب، وعلى ما يقولون عنك: ساحر، كذاب، شاعر، مجنون، وعلى قولهم: إن هذا إلا اختلاق، وقولهم: أأُنزل عليه الذكر من بيننا؟ وقولهم: عجل لنا قطنا، إلى غير ذلك من أقوالهم؛ فلك العاقبة الحسنى والنصر عليهم، ولقد امتثل النبيُّ ﷺ أمرَ الله له، فصبر حتى أتمَّ اللهُ له ما وَعَده، وظهر أمرُ الدين، فلم يلحق النبيُّ ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وقد أتم اللهُ له الأمر، وقامت دولةُ الإسلام.

ثم ذكر اللهُ قصص بعض الأنبياء الصابرين ليتأسَّى بهم النبي ﷺ في صبرهم وكثرة عبادتهم لله وتسبيحه وتمجيده سبحانه؛ فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ

﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾؛ أي: اذكر في نفسك عبدنا الصالح داود عليه السلام، واذكره مخبرًا عنه ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾؛ أي: ذا القوة في العبادة والملك؛ والأيْد مصدر آد يئيد أيْدًا؛ أي: قوِي قوة، وكان داود يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثُلُثه، وينام سُدُسه، مع سياسة الملك وجهاد العدو ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والعمل الصالح.

ثم ذكر تعالى ما أكرم اللهُ به داود؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾؛ أي: ذلَّلناها له ﴿يُسَبِّحْنَ﴾؛ أي: يسبِّحن بتسبيحه بلسان المقال، والفعل المضارع في موضع الحال، ولم يقل: مسبِّحات؛ لاستحضار الحال الماضية، والدلالة على تجدُّد التسبيح وقتًا بعد وقت ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾؛ أي: في آخر النهار وأوله، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر؛ لأن فيهما استقبال اليوم وتوديعه، فيفتتح يومَه ويختمه بالتسبيح ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾؛ أي: وسخَّرنا له الطير مجموعة تسبِّح معه ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كلُّ من داود عليه السلام والجبال والطير المحشورة ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: رجَّاع إلى الله بالتسبيح.

وجعل بعضُ المفسرين الضميرَ في قوله: ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ راجعًا إلى داود، وقالوا: كلٌّ له أواب؛ أي: مطيع، والأول أظهر؛ ويشهد له قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]؛ فأضاف التأويبَ إلى الجبال والطير في الآيتين، والتأويب التسبيح، ولا يكون التسبيح إلا لله، فوجب أن يكون الضمير المجرور في قوله: ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ عائدًا إلى الله تعالى.

قوله سبحانه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾؛ أي: قوَّينا مُلكَ داود بالنصر والهيبة وكثرة الجنود ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوَّة ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: الخطاب الفاصل البيِّن، من إضافة الصفة إلى الموصوف، فكان عليه السلام

يَفصِل بين المتخاصمين، ويَفصِل في الحكم على الأشياء بين الحق والباطل؛ فالتركيب من قبيل (جوامع الكلم)؛ أي: الكلام الجامع لمعان كثيرة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ وجوب الصبر على ما يقول الكافرون، بالثبات على الدعوة وعدم المبالاة بأقوالهم.

٢ ـ أن العبادة والذكر مما يعين على الذكر، ويشرح الصدر.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

٤ ـ إثبات العبودية الخاصة.

٥ ـ فضل داود نبيِّ الله عليه السلام، وذلك من وجوه:

الأول: أمر النبي محمد ﷺ بذكره.

الثاني: كثرة عبادته.

الثالث: وصفه بالعبودية لله.

الرابع: وصفه بالقوة في العبادة.

الخامس: كثرة رجوعه إلى الله بالتوبة والاستغفار.

السادس: كثرة تسبيحه وذكره لله.

السابع: تسخير الجبال والطير للتسبيح معه.

الثامن: إيتاؤه الملك.

التاسع: إيتاؤه الحكمة والقول الفصل.

٦ ـ أن داود عليه السلام كان يرفع صوته بالتسبيح في الصباح والمساء.

٧ ـ فضل التسبيح أول النهار وآخره، وشواهده في القرآن كثيرة.

٨ ـ تسخير الجبال والطير لداود؛ لتسبح معه.

٩ ـ إثبات قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾، وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ﴾.

١٠ ـ أن الجمادات والبهائم تسبِّح بلسان المقال؛ أي: تنطق، وتتعبَّد لله.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

١٣ ـ فيها شاهد لقوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

١٤ ـ أن داود عليه السلام نبيٌّ ملِك، وكذا ابنه سليمان عليه السلام.

١٥ ـ أن الله آتى داود الحكمة والقول الفصل.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

١٧ ـ فضل العلم.

١٨ ـ أن حسن البيان والقول السديد هبةٌ من الله.

ولما أثنى اللهُ على داود عليه السلام، أردف ذلك بذكر نبأ عجيب من أنبائه؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾.

▨ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ التنويهَ بخبر الخصمين اللَّذين تقاضيا عند نبي الله داود عليه السلام؛ لظلم أحدهما الآخر وبغيه عليه، وهو خبر عجيب، ولهذا سماه اللهُ نبأ، وتضمَّنت الآياتُ تفصيلَ القضية التي كانت بين الخصمين، وما جرى منهما من خلاف وترافُع إلى نبي الله داود، وحكمَه عليه السلام بينهما، وتضمَّنت الإشارةُ إلى ما كان من خطأ نبي الله داود، واستغفاره من ذلك.

▨ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهو لكل مؤمن تبعًا، والاستفهام للتعجيب والتشويق لما بعده، هذا إذا لم يكن للنبي ﷺ علمٌ بالخبر؛ أي: ما أتاك الخبر، وقد أتاك الآن، فاستمع إليه.

وإن كان للنبي ﷺ علمٌ به فالاستفهام للتعجيب والتقرير، والمعنى - على هذا -: أليس قد أتاك؟ فالاستفهام إما للنفي أو للإثبات، وتعيينُ

أحدهما متوقف على معرفة حال المخاطب بالخبر، وعلى كلا المعنيين لا يَنفَك الاستفهامُ عن التعجيب والحث؛ أي: جعل المخاطب متعجِّبًا، والحثِّ على تأمل الخبر وإشاعته، ولهذا أطلق عليه وصف النبأ؛ لأن النبأ هو الخبر الذي له شأن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ الخصم مصدر يُطلق على الواحد وعلى الكثير، مثل الضيف، والمراد هنا: الطرفان المتخاصمان ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾ مجموعًا مرادًا به المثنى؛ لأن ما فوق الواحد جمع أيضًا، تقول العرب: تسوَّر البيت؛ أي: علا سوره، وتسنَّم الجمل: إذا علا سنامه، والمعنى: أن الخصمين دخلا من فوق سور ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ وهو موضع العبادة.

قوله سبحانه: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ بدل من: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾؛ لأنهما تسوَّرا المحراب للدخول على داود ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: فخاف منهما؛ لأنهما لم يأتيا من الباب، ودخلا بغير استئذان، وفي وقت عبادته؛ فظنَّ أنهما دخلا لشرٍّ، فبادرا بقولهما: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾؛ أي: فنحن خصمان ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: ظلم أحدُنا الآخر؛ وجئناك لتقضي بيننا، ثم قرَّرا مقصودَهما بثلاث عبارات متلازمة:

الأولى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: اقض بيننا بالعدل.

الثانية: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾؛ أي: ولا تمِل في الحكم.

الثالثة: ﴿وَٱهْدِنَآ﴾؛ أي: وأرشدنا في قطع خصومتنا ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾؛ أي: وسط الطريق، والمراد: عين الحق ومَحْضه، وإضافة ﴿سَوَآءِ﴾ إلى ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف.

ثم شرع الخصمان في التفصيل؛ فقال أحدهما مُشيرًا إلى الآخر: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾؛ أي: في الدين أو في النسب، و﴿أَخِى﴾ بدل من

﴿هَٰذَآ﴾، ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ وهي أنثى الضأن، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾؛ أي: ليس لي إلا نعجة واحدة، فواحدة صفة تفيد تأكيد القلة ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾؛ أي: اجعلني كافلًا لها؛ أي: ملِّكنيها ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: وغلبني في كلامه، وإن كان الحق معي، ولم يتكلم خصمُه بشيء، فدلَّ على أن قوله صحيح، وأنه أقَرَّه على ذلك، ولهذا حكم داودُ عليه السلام بقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ خصمُك ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾؛ أي: بضمِّ نعجتك إلى نعاجه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾؛ أي: الشُّركاء جمع خَليط بمعنى: المخالط، والخُلطة ـ بضم الخاء ـ الشَّركة في المال ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: يظلم بعضُهم بعضًا، بطلب الزيادة بغير حق؛ فلا عجب ممَّا وقع بينكما ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: فهؤلاء لا يبغون، ولا يظلمون شركاءهم ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؛ أي: وهم قليل، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿قَلِيلٌ﴾ خبره مقدَّم عليه، و﴿مَا﴾ حرف زائد لتأكيد القلة؛ أي: قليلون جدًّا.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾؛ أي: وأيقن داودُ وعلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾؛ أي: ابتليناه واختبرناه بهذه الخصومة، و﴿أَنَّمَا﴾ أداة حصر؛ أي: أيقن أن الخصومة ليست إلا فتنةً له ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: سأل ربه أن يغفر له ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ أي: سقط على الأرض ساجدًا لله تعالى، وعبَّر عن السجود بالركوع؛ لأن كلًّا منهما فيه انحناء ﴿وَأَنَابَ﴾؛ أي: رجع إلى الله بالتوبة، وهنا موضع سجدة، فيسجد القارئُ بعد تلاوة هذه الآية، كما سجد النبيُّ ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (صَ) ليس من عزائم السجود، وقد رأيتُ النبيَّ ﷺ يسجد فيها[1]، وفيه دليل على أن المراد بالركوع في الآية السجود.

---

(١) رواه البخاري (١٠١٩).

وهذه القصة زلَّ فيها كثيرٌ من الناس؛ فقد ذهب بعضُ المفسرين إلى أن الذنب الذي وقع من داود هو استعجاله في الحكم دون أن يسمع كلام الخصم الآخر، وليس هذا بصحيح؛ لأنه يبعُد أن يكون هذا من آحاد قُضاة المسلمين، فكيف يقع من نبيٍّ معصوم؟! وتقدَّم أن المدَّعى عليه سكت، وأن سكوته إقرار لقول صاحبه، فلذا حكم داودُ عليه السلام بما حكم به.

وقال كثيرٌ من المفسرين: إن داود وقع في حبِّ امرأة ذات زوج، وإنه احتال على زوجها حتى أنفذه في غزو فقتل، فتزوج امرأته، فأرسل اللهُ إليه ملكين في صورة الخصمين؛ لتنبيهه على فعلته، إلخ ما ذكروا، وكلُّ ذلك من القصص الإسرائيلي الموضوع، الذي لا ينبغي التعويل عليه؛ لما فيه من الافتراء على الأنبياء ونسبة الكبائر إليهم، وما يتضمَّنه من وصف الملائكة الكرام بالبغي، وما أحسن قول الشيخ السعدي رحمه الله: «والذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله؛ لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرُّض له من باب التكلُّف، وإنما الفائدة ما قصَّه اللهُ علينا من لُطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محلُّه؛ فكان بعد التوبة أحسنَ منه قبلها»[(١)].

الفوائد والأحكام:

١ ـ التعجيب من قصة الخصمين.

٢ ـ أن الخصم يُطلق على الواحد وعلى العدد.

٣ ـ أن نبيَّ الله داود عليه السلام كثيرُ الملازمة لمحرابه، وهو الموضع الذي يصلي فيه لله.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن» (ص٧١١).

٤ ـ أنه كان يقضي بين الخصوم بشريعة التوراة، كما يدل له قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤].

٥ ـ أن الذي يتسوَّر مجلس القاضي ـ أي: يدخل عليه من غير بابه ـ ملومٌ ومذمومٌ؛ لأن ذلك من سوء الأدب، ولهذا فزع داود من الخصمين.

٦ ـ أن دخول البيوت ونحوها من غير أبوابها مدعاةٌ لفزع مَن فيها.

٧ ـ جواز الخوف الطبيعي على الأنبياء.

٨ ـ تطمين الخائف بتعريفه حقيقة الأمر.

٩ ـ أن الخصومات قديمةٌ في الناس.

١٠ ـ حُسن قصد الخصمين في تقاضيهما، وأنهما طالبان للحق.

١١ ـ فقه ذينك الخصمين؛ لقولهما: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾، وقولهما: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾؛ فأصابا في طلبهما، وأخطآ في نهيهما داود عن الشَّطط؛ لأنه عليه السلام معصوم، ولكن يسهِّل ذلك أنهما قالا ذلك قبل الحكم.

١٢ ـ تأكيدهما طلب الحكم بالحق بقولهما: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

١٣ ـ حُسن عرض المدَّعي المظلوم لقضيته.

١٤ ـ تحمُّل داود عليه السلام مطالبة الخصمين له بالعدل وترك الجور، وهو معصوم.

١٥ ـ التصريح بحكم داود نبيِّ الله عليه السلام.

١٦ ـ جواز الخُلطة في المال.

١٧ ـ أن خُلطة المال سبب للبغي والخصومة بين الخليطين.

١٨ ـ أن كثرة المال سببٌ لظلم الغنيِّ للفقير.

١٩ ـ أن ما أُخذ من مال الغير بإلحاح فلا يحل لآخذه؛ لأنه من غير طيب نفس، وفي الحديث: «**لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه**»[(١)]، وفي معناه: الإلحاح للتنازل عن الحقوق؛ فإن الإلحاح يضطر صاحبَ الحق إلى التنازل عن غير اختيار.

٢٠ ـ جواز إضافة الهداية إلى النبي، وهي هداية الدلالة والإرشاد.

٢١ ـ ذمُّ البغي.

٢٢ ـ أن الإيمان والعمل الصالح يَعصِمان من الظلم والبغي.

٢٣ ـ أن أهل هذا الوصف في الناس قليل.

٢٤ ـ أن ما جرى من الخصمين ابتلاءٌ من الله لداود؛ لتنبيهه على خطأ كان منه، ولهذا استغفر ربه وخرَّ راكعًا وأناب.

٢٥ ـ أن الظن يأتي بمعنى اليقين.

٢٦ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾.

٢٧ ـ سرعة رجوع داود عليه السلام عمَّا كان منه، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ: ١٧].

٢٨ ـ أن الأنبياء غير معصومين من صغائر الذنوب.

٢٩ ـ بُطلان القصة التي ذكرت في تفسير هذه الآيات، وفيها طعن على نبيِّ الله داود عليه السلام، وقد ذكر الرازيُّ وجوهًا تدل على بُطلانها؛ فارجع إلى تفسيره.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٠٦٩٥) وصححه محققوه، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٤٥٩) وغيره.

ثم ذكر تعالى أنه أجاب دعاء داود، وغفر له؛ **فقال سبحانه:**

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بمغفرة الله لداود ومنزلته عند الله، وما ادَّخر له من الثواب، واستخلافه حَكَمًا بين الناس، وأمره بالعدل في حكمه، ونهيه عن اتباع الهوى، والإخبار بسوء عاقبة الضالين الناسين ليوم الحساب، ثم أخبر تعالى أنه لم يخلق السماء والأرض باطلًا؛ أي: عبثًا؛ بل خلقهما بالحق، فلا يظنُّ ذلك بالله إلا الكافرون، وقد توعَّدهم اللهُ بالنار، ثم نبَّه تعالى على ما يستلزمه هذا الظن من الباطل، وهو التسوية بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين، وبين المتقين والفجَّار، وخُتمت قصة داود التي تضمَّنتها الآياتُ بذكر شأن القرآن وحكمة إنزاله؛ ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ﴾؛ أي: عفونا عنه، وسترنا ذنبه ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾؛ أي: لقُربى ومنزلة بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾؛ أي:

ومرجعا حسنًا في الآخرة ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾؛ أي: قال اللهُ يا داود ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾؛ أي: صيَّرناك ﴿خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: استخلفناك في الأرض؛ أي: جعلناك خليفة في الحكم والملك في إنفاذ الشرائع والفصل بعد من سبقك، هذا مع كونه نبيًّا ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي: ولا تسِر وراء هوى نفسك في الحكم وغيره ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ نُصب بـ (أن) مُضمرة بعد الفاء؛ لأنه في جواب النهي ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فيعدلَ بك الهوى عن دين الله وشرعه، وسمَّاه اللهُ سبيلًا وأضافه إلى نفسه المقدسة؛ لأنه يوصل إلى رضاه تعالى وكرامته.

ثم ذكر تعالى سوء عاقبة الضلال؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إظهار ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في مقام الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بقُبح الضلال؛ أي: إن الذين يَعدلون عن سبيل الله ويتبعون أهواءهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾؛ أي: مؤلم بالغ الشدة ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: بسبب نسيانهم اليوم الذي سيحاسبون فيه؛ أي: تركهم العمل لذلك اليوم.

ولما ذكر نسيان الكفار ليوم الحساب لأنهم منكرون للبعث، نفَى ما يستلزمه إنكار البعث، وهو أن خلق السماوات والأرض باطل لا حكمة فيه، وهو اعتقاد الكفَّار؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات ﴿بَٰطِلًا﴾؛ أي: خلقًا باطلًا؛ أي: عبثًا خاليًا عن الحكمة ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ظنُّ خَلْق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: ظنُّ الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء، ويريدون أن تجري الأحكامُ على أهوائهم ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: هلاك وعذاب شديد لهم، وذكرهم بالاسم الظاهر دون الضمير؛ لبيان اختصاصهم بالويل ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ من ابتدائية؛ أي: هلاك مبدؤه من النار.

ثم بيَّن تعالى أن حكمته تأبى أن يُسوَّى بين الصالح والمفسد، وبين المتقي والفاجر؛ فقال سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة لعدم وجود المعادل، فهي بمعنى بل والهمزة؛ أي: بل أنجعل المؤمنين الصالحين كالكفرة المفسدين؟! ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾؛ أي: بل أنجعل أهلَ التقوى والإيمان كالفجرة المشركين؟! والاستفهام للإنكار والتعجيب؛ أي: لا يكون ذلك، والمتقون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، كما أن الفجّار هم المفسدون في الأرض؛ فزيد في وصف كلٍّ فريق بما يخصُّه؛ ليظهر التنافي بين الفريقين، وفي الآية وعد ووعيد.

قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك - أيها الرسول - وإلى أمتك ﴿مُبَٰرَكٌ﴾؛ أي: كثير الخير جامع لأسباب سعادة الدنيا والآخرة، أنزله اللهُ للعباد ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: لينظروا في معانيها، ويفهموا عن الله أوامرَه ونواهيه ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾؛ أي: وليتعظ بهذا القرآن ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أهل العقول السليمة، وخصَّهم بالذكر؛ لأنهم أهل التدبُّر والتذكُّر، فهم المنتفعون بهذا القرآن.

الفوائد والأحكام:

١ - أن الله غفر لداود عليه السلام ما استغفر منه، وكرَّمه برفع منزلته عنده، وبحسن الثواب المدَّخر له.

٢ - إثبات عندية الحكم.

٣ - إثبات الكلام من الله تعالى.

٤ - أن تدبير أمر العباد إلى الله يرفع من يشاء، ويخفض من يشاء.

٥ ـ إثبات الجَعْل الكوني.

٦ ـ أن الله اصطفى داود عليه السلام حَكَمًا بين الناس، وأمره بالحكم بالحق.

٧ ـ احتياج الناس إلى قاضٍ يحكم بينهم.

٨ ـ وجوب نصب قاضٍ يحكم بين الناس.

٩ ـ تأكيد الحكم بالجمع بين الأمر والنهي؛ لقوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾.

١٠ ـ إنعام الله على داود بالنعم الدينية والدنيوية، بالعلم والمُلك.

١١ ـ أن الأنبياء عبادٌ يؤمرون ويُنهَون.

١٢ ـ وجوب الحكم بالحق.

١٣ ـ أن اتباع الهوى ضلالٌ عن سبيل الله.

١٤ ـ أن العدول عن سبيل الله يفضي إلى عذاب الله.

١٥ ـ أن من صفات الضالين عن سبيل الله نسيان الآخرة.

١٦ ـ أن من أسماء يوم القيامة يوم الحساب.

١٧ ـ أن من أسباب الهداية تذكُّر يوم الحساب، ونسيانه سبب الضلال.

١٨ ـ إثبات الحساب.

١٩ ـ أن الحساب والجزاء هو الحكمة من خلق السماء والأرض.

٢٠ ـ إثبات الأسباب في الخير والشر؛ لقوله: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

٢١ ـ أن السماء والأرض مخلوقتان لله، مُحدَثتان بعد العدم.

٢٢ ـ أن الله لم يخلق السماء والأرض باطلًا؛ أي: لعبًا؛ بل خلقهما بالحق، وللحق.

٢٣ ـ أن جَحْد حكمة الله من ظنِّ الكافرين.

٢٤ ـ تهديد الكافرين بالنار.

٢٥ ـ أن إنكار الجزاء والحساب يتضمَّن الطعن في حكمة الله؛ بجعل المصلحين كالمفسدين، والمتقين كالفجَّار.

٢٦ ـ إثبات الدليل العقلي على وقوع البعث؛ لأن عدم البعث يستلزم التسوية بين المصلحين والمفسدين، والمتقين والفجَّار، وهذا ممتنع على الله.

٢٧ ـ أن المعاصي إفسادٌ في الأرض.

٢٨ ـ أن القرآن منزَّل من عند الله، وأنه كلامه تعالى.

٢٩ ـ أن القرآن مبارك؛ أي: كثير الخير.

٣٠ ـ الحكمة من إنزاله على الرسول ﷺ ليبلِّغه، وهي التدبُّر والتذكُّر.

٣١ ـ أن القرآن أنزل للتذكير بما يجب على العباد.

٣٢ ـ الندب إلى تدبُّر القرآن.

٣٣ ـ إثبات التعليل في أفعال الله؛ لقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

٣٤ ـ الثناء من الله على ذوي العقول الراجحة بالتذكُّر للقرآن، كما أثنى اللهُ عليهم بالتفكُّر في خلق السماوات والأرض، في الآيات من سورة آل عمران.

٣٥ ـ أن الانتفاع بالقرآن يرجع إلى سلامة العقل وجودة الفهم، بعد هداية الله.

ثم ذكر اللهُ قصة سليمان عليه السلام؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بنعمة عظيمة من نعم الله على عبده داود، وهي أن وهب له ابنه سليمان نبيًّا، وأثنى عليه، كما أثنى على أبيه؛ فقال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ثم ذكر بعض ما يدلُّ على تعظيمه لأمر ربه، وهو ما تضمَّنته قصة عرض الخيل الصافنات عليه، ثم ذكر فتنته تعالى له؛ قيل بذهاب مُلكه، فأناب إلى ربه، فسأل ربَّه مُلكًا فوق مُلكه الذي ذهب، فأجاب اللهُ دعاءه، فسخَّر له الريحَ تجري بأمره، وسخَّر له شياطين الجن تطيعه ولا تعصيه، تكليف من الله لهم، يعملون له ما يستلزمه المُلك من المباني والمصنوعات والآلات والأشكال، كما أشار إلى ذلك هنا، وفصَّله في سورة سبأ، وأذِن اللهُ له بتدبير مملكته وجنوده بما شاء، ثم خُتمت قصة سليمان بوعده بمثل ما وعد اللهُ به أباه، فسبحان الذي يخلق ما يشاء ويختار.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: ورزقنا داود ولدًا اسمه سليمان، وكان نبيًّا مثله، وقد ورث عن أبيه النبوة والعلم بإعطاء الله له ذلك، ومدحُ الولد بخصال حميدة يقتضي مدحَ الوالد بها ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾؛ أي: سليمان نعم العبد ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل للمدح؛ أي: كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والعمل الصالح.

ثم ذكر تعالى حالًا من أحوال سليمان تستحق الذكر والثناء؛ فقال سبحانه: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: اذكر حين عُرض عليه ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾؛ أي: آخر النهار، والمراد من ذكر الوقت ذكر ما وقع فيه ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾؛ أي: الخيول السريعة، والصَّافنات جمع صافن، وهو ما يقف على ثلاث قوائم، ويرفع الرابعة، وطرف حافرها على الأرض، وهذا لا يكون إلا في الأصيل من الخيل، والجياد جمع جواد، وهو السابق منها، ويُطلق على الذكر والأنثى. عُرضت الجياد على سليمان؛ لينظر إليها ويتفقدها؛ لأنها عدَّته في الجهاد، وما زال مشغولًا بها حتى غربت الشمس.

قوله سبحانه: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾؛ أي: آثرتُ حبَّ الخيل على ذكر الله ﷻ، والعرب تسمِّي الخيل خيرًا؛ لأن الخير معقود بنواصيها ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾؛ أي: استترت الشمس، وذكر العشيِّ دالٌّ على الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾؛ أي: بما يحجبها عن الأبصار، ثم قال سليمان لرجاله: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾؛ أي: ردُّوا الخيل عليَّ، فردُّوها عليه ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا﴾؛ أي: شرع يمسح مسحًا ﴿بِٱلسُّوقِ﴾ جمع ساق، والباء مزيدة لتأكيد اتصال الفعل بمفعوله ﴿وَٱلْأَعْنَاقِ﴾؛ أي: يمسح سوقَها وأعناقها إعجابًا بها، وحبًّا لها، هذا قول طائفة من أهل التفسير،

ورجَّحه ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ[١].

وعند أكثر المفسرين معنى الآية: أن المراد بمسح أعناقها وسوقها: قطعها بالسيف؛ لأنها ألهتْه عن ذكر الله، ورجَّح هذا القول ابن كثير، وكان ابن جرير قد ردَّه محتجًّا بأن هذا النبيَّ لم يكن ليعذب حيوانًا بالعَرْقبة، ويُهلك مالًا من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها، وتعقَّبه ابن كثير بأن هذا قد يكون جائزًا في شرعهم، ولا سيما إذا كان غضبًا لله عَزَّوَجَلَّ[٢].

ثم ذكر اللهُ ابتلاءً لسليمان ابتُلي به، ثم رجع إلى الله تائبًا منه منيبًا؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: اختبرناه وابتليناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ وهو عرش الملك الذي كان يجلس عليه ﴿جَسَدًا﴾ اختلف المفسرون في هذا الجسد الملقَى؛ وأكثرهم يذكر قصصًا وأخبارًا إسرائيلية لا تصح، ولا تليق بمنصب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ كقولهم: إن الجسد شيطان تمثَّل بصورة سليمان، وصار يدبِّر الملك، إلى آخر ما ذكروا من أقوال ترجع إلى النقل عن بني إسرائيل.

واستحسن ابنُ عرفة المفسِّر أن الجسد هو شِقُّ إنسان وُلِد لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ[٣]، واستظهره الألوسي[٤]، واستشهدا على ذلك بما جاء في الصحيحين أن سليمان قال ذات يوم: لأطوفنَّ الليلة بمئة امرأة، تلد كلُّ امرأة غلامًا يقاتل في سبيل الله، فقال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل، ونسي، فأطاف بهن، ولم تلد منهن إلا امرأةٌ نصفَ إنسان،

---

(١) «جامع البيان» (٢٠/ ٨٧).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٦٥).
(٣) «تفسير ابن عرفة» (٤/ ٨٥٨) ط. دار ابن حزم.
(٤) «روح المعاني» (٢٣/ ٢٨٧).

قال النبي ﷺ: «**لو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان أرجى لحاجته**»(١)، قال الألوسي: «فالمراد بالجسد ذلك الشقُّ الذي ولد له، ومعنى إلقائه على كرسيه: وضع القابلة له عليه ليراه». اهـ.

قلت: وهذا التفسير لم يقل به أحدٌ من مفسِّري السلف فيما رأيت، ولم يذكره الإمامان ابن جرير ولا ابن كثير مع توسُّعهما في النقل، وقصة سليمان وطوافه بنسائه ثابتة، ولكن لا علاقة لها بالآية، فالله أعلم بمراده من كلامه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ أي: رجع إلى الله بالتوبة ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾؛ أي: استر ذنبي ولا تؤاخذني به ﴿وَهَبْ لِي﴾؛ أي: أعطني ﴿مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾؛ أي: لا تعطيه أحدًا من بعدي ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾؛ أي: أنت وحدك واسع الفضل كثير العطاء، وإنما سأل اللهَ ذلك ليعظُم سلطانه، فيكون أقوى على تنفيذ أمر الله.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: ذلَّلناها له ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: حسب مشيئته، فإذا أمَرها أن تجري جرت، وإذا أمرها أن تسكن سكنت ﴿رُخَآءً﴾؛ أي: ليِّنة مريحة في سيرها ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾؛ أي: إلى أيِّ وجهة قصد، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١]؛ فقوله: ﴿عَاصِفَةً﴾؛ أي: سريعة، فإنها مع سرعتها لا تخرج عن كونها ليِّنة طيِّعة، كما يدل عليه قوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ﴾ في الآيتين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾؛ أي: وسخَّرنا له شياطين الجن، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [سبأ: ١٢]، ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدل من الشياطين؛ فمنهم من يبني له المباني العظيمة، ومنهم

---

(١) البخاري (٤٩٤٤)، ومسلم (١٦٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي يغوص في البحر، فيستخرج منه الجواهر واللؤلؤ، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَءَاخَرِينَ﴾؛ أي: وسخَّرنا له شياطين آخرين ﴿مُقَرَّنِينَ﴾؛ أي: قُرِن بعضهم إلى بعض ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾؛ أي: في الأغلال، جمع صَفَد، وهو القيد، فهؤلاء متمردون مؤذون.

ثم ذكر تعالى أنه أعطى سليمان هذا الملك يتصرف فيه كما يريد؛ فقال سبحانه: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾؛ أي: الذي أنعمنا به عليك، وإضافة العطاء إلى ضمير الرب لتعظيم العطاء ﴿فَٱمْنُنْ﴾؛ أي: فأعط من شئت ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾؛ أي: أو امنع عمَّن شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: لا حساب عليك في ذلك ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾؛ أي: لسليمان ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾؛ أي: لقربى ومنزلة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾؛ أي: ومرجعًا حسنًا في الآخرة.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الابن هبةٌ من الله.

٢ ـ أن الأنبياء والرُّسُل يكون لهم أزواج وذرية.

٣ ـ أن من أنبياء بني إسرائيل سليمان بن داود عليهما السلام.

٤ ـ أنه نبيٌّ ملِكٌ، كأبيه.

٥ ـ إثبات العبودية الخاصة.

٦ ـ مدح الله لسليمان عليه السلام بالعبودية لله وعبادته.

٧ ـ أن سليمان أوَّابٌ، كأبيه.

٨ ـ الندب إلى كثرة الأوْب إلى الله.

٩ ـ تفضيل سليمان على داود عليهما السلام في المُلك، بتسخير الجن له، وتسخير الريح، وتعليم منطق الطير، وتفهيمه الحكم في قضية الحرث.

١٠ ـ الشَّبَه بين داود وابنه سليمان في أمور الدين كالعبادة، والدنيا كالمُلك، والآخرة كالزُّلفى وحسن المآب.

١١ ـ فضل الخيل؛ وأنها من مظاهر المُلك.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[1].

١٣ ـ حبُّ نبيِّ الله سليمان للخيل.

١٤ ـ أن عادة الناس قديمًا وحديثًا إجراء الخيل مساء؛ لقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾.

١٥ ـ إتلاف سليمان للخيل، حين شغلته عن الصلاة؛ غضبًا لله.

١٦ ـ جواز أن يتلف الإنسان من ماله ما اشتغل به عن فريضة من فرائض الله، غيرةً لحق الله، وتأديبًا لنفسه.

١٧ ـ أن ما فعله سليمان عليه السلام بالخيل كان جائزًا في شرعه.

١٨ ـ أن الريح قد تأتي مفردة مُرادًا بها المسخَّرة بالرحمة.

١٩ ـ ذكر الله بعضَ تعظيمِ سليمان لحقِّ ربِّه، وهو إيثارُه ذكرَ ربِّه على بعض حظوظ الدنيا التي ابتلي بها.

٢٠ ـ أنَّ من ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه؛ فإن الخيل لما تلفت سخَّر اللهُ لسليمان الريح.

٢١ ـ أن لسليمان عليه السلام كرسيًّا يجلس عليه لتدبير مُلكه.

٢٢ ـ أن الله أبهم الجسد الملقَى على كرسيِّ سليمان عليه السلام، وما أبهمه اللهُ فلا ينبغي للمسلم البحث عنه.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٥)، ومسلم (١٨٧١).

٢٣ ـ إنابة سليمان عليه الصلاة والسلام إلى ربِّه حين ابتلي.

٢٤ ـ أنه لا غنى لأحد عن مغفرة الله، حتى الأنبياء.

٢٥ ـ استحباب الاستغفار بين يدي المسألة.

٢٦ ـ حسن ظنِّ سليمان عليه السلام بربِّه؛ إذْ طلب مُلكًا يخصُّه به.

٢٧ ـ توسُّل سليمان باسمه تعالى ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾.

٢٨ ـ إثبات هذا الاسم لله، وما يدلُّ عليه من كثرة العطاء.

٢٩ ـ أن الابتلاء يجري على العباد؛ حتى الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

٣٠ ـ أن الابتلاء يكون بالخير والشر؛ بالنعم والمصائب.

٣١ ـ إجابة الله دعاء سليمان عليه السلام.

٣٢ ـ ذكر مقوِّمات المُلك الموهوب: تسخير الريح، والشياطين.

٣٣ ـ أن هذا المُلك الذي أوتيه سليمان لم يؤتَه أحد قبله ولا بعده، حتى إن الرسول ﷺ لمَّا عرَض له الشيطان ترك أن يأسره؛ لما ذكر قول سليمان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾[1].

٣٤ ـ طاعة الجمادات لمن أُمرت بطاعته، ومن ذلك الريح.

٣٥ ـ جريان الريح بأمر سليمان عليه السلام، رخاءً وعاصفة.

٣٦ ـ طاعة الريح لأمر سليمان عليه السلام فيما شاء من جريانها أو سكونها.

٣٧ ـ وجوب طاعة من أَمَر الله بطاعته.

٣٨ ـ أن تسخير الجنِّ لسليمان كونيٌّ وشرعيٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [سبأ: ١٢].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٢٣)، ومسلم (٥٤١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٣٩ ـ أن من أعمال الجنِّ البناء والغوص في البحر؛ لاستخراج اللؤلؤ.

٤٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

٤١ ـ أن الغوص من جلائل الأعمال.

٤٢ ـ أن الشياطين المسخَّرين لسليمان عليه السلام كثيرون؛ منهم طليقون يعملون، ومنهم محبوسون.

٤٣ ـ أن اسم الشيطان قد يُطلق على الموهوب بالقدرة النادرة والمهارة المميَّزة.

٤٤ ـ عظمة ملك نبيِّ الله سليمان وسعة سلطانه حتى سلِّط على الجن.

٤٥ ـ إذن الله لسليمان بالتصرُّف بمشيئته فيما سخِّر له، فيُطلِق من يشاء، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء.

٤٦ ـ علو منزلته عند الله.

٤٧ ـ إثبات عندية الحكم.

٤٨ ـ شَبَه سليمان لأبيه في الإنابة والاستغفار.

٤٩ ـ أن مُلك سليمان كان بسبب دعائه.

٥٠ ـ جواز سؤال منافع الدنيا إذا حسُنت النيَّة.

﴿ قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ التنويهَ بعدد من الأنبياء: أيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذو الكفل عليهم السلام، والإخبارَ بما ابتلي به أيوب في بدنه، وشفاء الله له، والثناء عليه بالصبر، والثناء على إبراهيم وإسحاق ويعقوب بالقوة والعلم.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ عطف بيان لعبدنا، وأيوب من أنبياء بني إسرائيل، أمر اللهُ نبيَّنا محمدًا ﷺ أن يذكره وبلاءه، بعد ذكر سليمان وشكره على وفور نعمه؛ ليتأسى بالنبيِّين الكريمين؛ ففي خبرهما أسوة للشاكرين والصابرين، المعنى: تذكر ـ أيها الرسول ـ عبدنا أيوب للتأسي بالصبر، والتسلِّي عمَّا أنت فيه من مكابدة المشركين ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدل اشتمال من ﴿أَيُّوبَ﴾، و﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿اذْكُرْ﴾؛ أي: اذكر أيوب حين نادى ربَّه متضرعًا إليه لكشف ضره، ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ﴾؛ أي: أصابني ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وهو شيطان من الجن ﴿بِنُصْبٍ﴾؛ أي: بتعب عظيم،

يقال: نُصْبٌ ونَصَبٌ، ورُشْدٌ ورَشَدٌ، وحُزْنٌ وحَزَنٌ ﴿وَعَذَابٍ﴾؛ أي: ألم شديد وهو مرضه في بدنه، وهذا من حكاية كلام أيوب الذي نادى ربَّه به، ولو لم يحكه لقيل: إنه مسَّه؛ لأنه غائب، ونسب أيوبُ المسَّ إلى الشيطان؛ لأنه سبب فيه، وعطف (عَذَابٍ) على (نُصْبٍ) من عطف المسبَّب على السَّبب.

قوله سبحانه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾؛ أي: فاستجبنا له، وقلنا له: اضرب برجلك الأرض، فضربها، فنبع منها الماء بقدرته تعالى ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾؛ أي: ماءٌ تغتسل به وتشرب منه، فاغتسل أيوب وشرب، فشفاه اللهُ من مرضه، كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

قوله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾؛ أي: وجمعنا له أهله الذين تفرقوا عنه أثناء مرضه ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾؛ أي: وزدنا عليهم مثلهم من زوجة وولد، فصاروا ضعف ما كانوا ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾؛ أي: فعلنا ذلك رحمة منا به وإنعامنا عليه، و(مِن) ابتدائية؛ أي: رحمة حاصلة منَّا، كما قال في الأنبياء: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤]، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: تذكرة وموعظة ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: لأهل العقول السليمة فيتعلمون من قصة أيوب اللجأ إلى الله عند الشدائد، وانتظار الفرج بالصبر الجميل.

ثم ذكر تعالى من رحمته بأيوب أنه رخَّص له في تحلِّة يمينه حين حلف أن يضرب زوجته مئة ضربة بسبب خطأ منها؛ فقال سبحانه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾؛ أي: عِثكالًا فيه مئة شمراخ ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ امرأتك ضربة واحدة تكفي عن مئة ضربة، فشرع اللهُ له بهذا العمل الهيِّن إتمام يمينه ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾؛ أي: ولا تقع في الحِنث وهو الإثم بسبب عدم فعل ما حلفت عليه ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ﴾؛ أي: أيوب ﴿صَابِرًا﴾؛ أي: علمناه صابرًا على البلاء، ولا ينافي ذلك شكواه إلى ربه، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ مدحٌ من الله له؛ أي: نعم الموصوف بالعبادة أيوب ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والعمل الصالح، وفيه إشارة إلى أنه عابد حتى في حال بلائه عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ أيها الرسول ﴿عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل أبا الأنبياء ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ ابنه ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق؛ أي: اذكر هؤلاء الأنبياء الأخيار، وتأسَّ بهم في عبادتهم وصبرهم ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي﴾؛ أي: أصحاب القوة في الدين، والأيدي جمع يدٍ ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ جمع بَصَر والمراد البصيرة؛ أي: وأصحاب البصائر النافذة المستنيرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ هذا تعليل للأمر بذكرهم وما وُصفوا به من العبودية، وجعلهم قدوة لمن بعدهم ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُمْ﴾؛ أي: خصَصْناهم ﴿بِخَالِصَةٍ﴾؛ أي: بصفة، والباء لتعدية الفعل ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ عطف بيان أو بدل من (خَالِصَةٍ)؛ أي: نزعنا ما في قلوبهم من حب الدنيا؛ فليس لهم همٌّ إلا الدار الآخرة، ويا لها من خصلة عظيم الشأن؛ بل هي رأس كلِّ خير، وأطلق ذكر الدار على الدار الآخرة؛ لأنها دار المقامة التي لا ظعن منها، وقد ذكرت بهذا الاسم في آيات كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: أولئك الثلاثة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿عِندَنَا﴾؛ أي: في حكمنا ﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾؛ أي: المختارين ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خيِّر ـ بوزن سيِّد ـ وهو كثير الخير ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾ وهو ابن إبراهيم، وأفرده بالذكر عن أبيه وأخيه لِما له من الخصائص والمقامات العظيمة، ولأبوته لنبيِّنا محمد ﷺ ﴿وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ وهما من أنبياء بني إسرائيل ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾؛ أي: وكلُّ هؤلاء الثلاثة من عبادنا الأخيار.

الفوائد والأحكام:

١ ـ فضل نبي الله أيوب عليه السلام، وذلك من وجوه:

الأول: أمر الله نبيَّه ﷺ أن يذكره، ويخبر بخبره.

الثاني: إضافته إليه سبحانه بصفة العبودية.

الثالث: ضراعته إلى ربه.

الرابع: إجابة الله دعاءه وشفاؤه من عِلَّته.

٢ ـ إثبات العبودية الخاصة.

٣ ـ ابتلاء الله نبيَّه أيوب عليه السلام بالسُّقم المُضني.

٤ ـ أن الشكوى إلى الله لا تُنافي الصبر.

٥ ـ مشروعية اللجأ إلى الله عند الشدائد.

٦ ـ جواز أن يُسلَّط الشيطان على بدن النبيِّ، فيضره الضرر الجسدي.

٧ ـ جواز مثل ذلك على الأنبياء.

٨ ـ أن السُّقم الذي أصاب أيوب قروحٌ في بدنه بسبب الشيطان.

٩ ـ جواز إضافة الضُّر إلى سببه.

١٠ ـ أن تأثير الأسباب يكون بجَعْل الله ومشيئته.

١١ ـ أن النبيَّ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف بغيره؟!

١٢ ـ ابتلاء أيوب بفراق أهله.

١٣ ـ إجابة الله دعاء عبده أيوب بشفائه من سقمه، وردِّ أهله إليه.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

١٥ ـ أن شفاء أيوب كان بالماء البارد الذي خلقه اللهُ ليغتسل به ويشرب منه.

١٦ ـ أن هذا الماء انفجر من الأرض بركضة أيوب برجله، كما أمره الله، وذلك خاصٌّ به عليه السلام.

١٧ ـ إثبات تأثير الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار.

١٨ ـ شَبَه هذا الماء بماء زمزم في نبعها بركضة الملَك.

١٩ ـ أن هذا الماء صالح للشرب، كما هو صالح للاغتسال.

٢٠ ـ أن هذا الماء بارد.

٢١ ـ أن مثل هذا السُّقم يعالج بالماء البارد كالحمَّى.

٢٢ ـ جواز التداوي بما ثبت نفعه.

٢٣ ـ ردُّ أهل أيوب إليه بعد التفرُّق ومثلهم معهم، رحمة من الله به.

٢٤ ـ ثناء الله على أيوب بالصبر، ومدحه له بالعبودية الخاصة، وكثرة الأوب إلى ربه.

٢٥ ـ أنَّ مَن حلف أن يجلد أحدًا جلَدات، وهو لا يستحق ذلك، أو أنَّ ذلك يهلك به، فيجزئه أن يجلده بعِثكال فيه من الأعواد بعدد الجلَدات.

٢٦ ـ إباحة بعض الحيل.

٢٧ ـ جواز ضرب الزوجة إذا كان منها ما يوجب ذلك.

٢٨ ـ جواز ترك الاستثناء في اليمين.

٢٩ ـ أن شرع من قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرد شرعُنا بخلافه.

٣٠ ـ إثبات الرحمة من الله؛ لقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

٣١ ـ أن ما جرى من أمر أيوب تذكرةٌ لذوي العقول المستقيمة؛ لقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٣٢ ـ أن ذوي العقول هم المنتفعون بالمواعظ والتذكير.

٣٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

٣٤ ـ فضل إبراهيم الخليل وابنه إسحاق وابنه يعقوب، وذلك من وجوه:

الأول: التنويه بشأنهم؛ إذ أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بذكرهم، والإخبار عنهم.

الثاني: وصفهم بالعبودية الخاصة.

الثالث: وصفهم بالقوة في الدين.

الرابع: وصفهم بالعلم.

الخامس: إخلاص الله لهم بخالصةٍ هي ذكرهم للآخرة وتذكيرهم بها.

السادس: الاصطفاء من الله لهم.

السابع: وصفهم بالخيرية.

٣٥ ـ أن لله عبادًا مصطفين.

٣٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

٣٧ ـ الردُّ على القدرية في نفي هداية التوفيق عن الله؛ حيث أضاف اللهُ إخلاصَهم بخالصة الدار إليه تعالى.

٣٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

٣٩ ـ فضل القوة في عمل الآخرة، قال ﷺ: «**المؤمن القوي خير**

وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف»[١]

٤٠ ـ التجوُّز بالأيدي عن القوة.

٤١ ـ إثبات عندية الحكم.

٤٢ ـ عِظم شأن الدار الآخرة.

٤٣ ـ فضل أنبياء الله: إسماعيل واليسع وذي الكفل عليهم الصلاة والسلام.

٤٤ ـ التنويه بشأنهم؛ إذ أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بذكرهم، والإخبار عنهم.

٤٥ ـ ثناء الله عليهم بالخيريَّة.

٤٦ ـ أن لله عبادًا أخيارًا، منهم إسماعيل واليسع وذو الكفل.

٤٧ ـ تفاضُل الأنبياء.

٤٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى في الأنعام: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ [٨٦].

٤٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ [مريم: ٥٤].

٥٠ ـ الإجمال بعد التفصيل؛ لقوله: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ التنويهَ بشأن القرآن، وأنه ذِكر للعباد؛ أي: تذكير، والإخبار عمَّا أعدَّه الله للمتقين من الجنات، والإخبار عن حالهم فيها، وما أعدَّ اللهُ لهم من أنواع النعيم، من الفاكهة والشراب والأزواج، وأن هذا موعود المتقين في يوم القيامة يوم الحساب، وأنه رزقٌ من الله لا ينفد أبد الآباد.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ﴾ مبتدأ وخبر؛ أي: هذا القرآن ذكر؛ أي: تذكير وموعظة، وشرف لأهله، وفي هذه الجملة حُسن انتقال لبيان عاقبة الصالحين ممَّن ذكر في هذه السورة من الأنبياء وغيرهم؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾؛ أي: مرجعًا حسنًا في الدار الآخرة ينقلبون إليه، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بيان للمآب الحسن؛ أي: جناتِ إقامة وخلود، مِن عَدَن بالمكان؛ إذا أقام فيه، وعلى هذا فـ ﴿عَدْنٍ﴾ ليس اسمًا مخصوصًا لجنة من الجنات؛ بل هو وصف عام لجميع الجنات، فكلُّها جنات عدن، كما يُفيده اشتقاق المادة، وجُمعت الجنات باعتبار أنواعها،

وإذا أُفردت فباعتبار الجنس ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾؛ أي: مفتَّحة أبوابها إكرامًا لهم ليدخلوها، لا يصدُّهم عنها شيء، وكذلك أبواب منازلهم مفتَّحة لتدخل عليهم الملائكة.

ثم ذكر تعالى ما يدلُّ على اطمئنانهم التام في الجنة؛ فقال سبحانه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾؛ أي: متكئين في الجنة هم وأزواجهم على الأرائك، وهي السرر الوثيرة، والاتكاء هيئة بين الاضطجاع والجلوس، جِلسة الناعم الآمن الخالي من الهموم والكُلف، المتمكن من أنواع الملاذ، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يطلبون وهم في الجنة، والدُّعاء نوع من الأمر، يقال: دعا بالشيء؛ أي: طلب إحضاره ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾؛ أي: كثيرة الأصناف والأنواع ﴿وَشَرَابٍ﴾؛ أي: ما يُشرب من العسل واللبن والخمر وغيرها، والاقتصار على الفاكهة والشراب لأن ما يتناول في الجنة إنما هو للتلذُّذ، لا لدفع ألم الجوع والظمأ.

ثم وصف أزواجهم؛ فقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: حابسات أبصارهن، فلا ينظرن لغير أزواجهن؛ لجمالهم في أعينهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ جمع تِرب؛ أي: على سن واحدة، وهو وصف لجميع نساء الجنة من الحور، ومن النساء المؤمنات، ولعل الحكمة في تساويهن في السنِّ؛ ليكون أدعى إلى الوفاق ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: هذا النعيم الذي توعدونه أيها المتقون ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: في يوم الحساب؛ أي: يوم القيامة الشامل للبعث والنشور والحشر والحساب والجزاء والجنة والنار، فهو يوم لا آخر له ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ أي: ما ذكرنا من الثواب ﴿لَرِزْقُنَا﴾؛ أي: لعطاؤنا، وأضافه اللهُ إلى نفسه لشرفه وكماله ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾؛ أي: ما له من فناء ولا انقطاع.

الفوائد والأحكام:

١ ـ التنويه بشأن القرآن بالتذكير.

٢ ـ أن من أسماء القرآن الذِّكر.

٣ ـ التناسُب بين هذه الآية وأول آية في السورة، وهذا من محاسن البيان في القرآن.

٤ ـ بشارة المتقين بما أعدَّ اللهُ لهم من حسن المآب.

٥ ـ أن تقوى الله أعظم سبب في دخول الجنة.

٦ ـ تفسير المآب الحسن بالجنات.

٧ ـ إثبات الجنة.

٨ ـ أن من أسماء الجنة: جنة عدن؛ أي: إقامة.

٩ ـ أن للجنة أبوابًا.

١٠ ـ استقبال المؤمنين بفتح أبوابها.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣].

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

١٣ ـ فيها شاهد لما جاء في الأحاديث من ذكر أبواب الجنة[1].

١٤ ـ أن من نعيم أهل الجنة الاتكاءَ على السرر، والدعاءَ بالفاكهة.

١٥ ـ كثرة فواكه الجنة.

---

(١) ومنها: حديث سهل بن سعد ﷺ مرفوعًا: «**في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون**». رواه البخاري (٣٠٨٤).

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

١٧ ـ أن من نعيم أهل الجنة الأزواج القاصرات الطرف.

١٨ ـ أن أزواج المؤمنين في الجنة قاصرات طرفهن عليهم؛ لحُبهنَّ لهم وحسنهم.

١٩ ـ أنهن أتراب.

٢٠ ـ أن نعيم الجنة حسِّي؛ خلافًا لما تزعمه الفلاسفة الملاحدة أنَّه روحانيٌّ.

٢١ ـ أن كل ما ذكر وعد من الله للمتقين، والله لا يخلف الميعاد.

٢٢ ـ أن هذا الموعود وقته يوم الحساب.

٢٣ ـ أن من أسماء يوم القيامة يوم الحساب.

٢٤ ـ التذكير بالحساب للاستعداد له بالعمل الصالح.

٢٥ ـ أن كلَّ ما أعد الله للمتقين في الجنة رزقٌ من الله.

٢٦ ـ أنه رزق دائم لا انقطاع له؛ ففيها:

٢٧ ـ شاهد لقوله تعالى: ﴿...وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٢، ٦٣].

٢٨ ـ الرد على الجهمية القائلين بفناء الجنة.

ولما ذكر ثواب المتقين أعقبه بذكر جزاء الطاغين؛ **فقال سبحانه:**

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

▣ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عمَّا أعدَّ اللهُ للطاغين من الكافرين؛ من شرِّ مآب، وهو جهنم وما فيها من الحميم والغسَّاق، وذكر ما يكون من الخصومة بين أفواج أهل النار، والإخبارَ عن تفقُّد أهل النار لمن كانوا يَعدُّونهم في الدنيا من الأشرار، يَعنون المؤمنين بالله الواحد القهَّار، وتأكيدَ الخبر عن هذه المخاصمة بين أهل النار.

▣ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ ابتداء الآية باسم الإشارة ﴿هَٰذَا ۚ﴾ في مثل هذا السياق من بليغ البيان، وهو معروف عند البلغاء بحسن الانتقال؛ إذْ يؤتى باسم الإشارة للفصل بين كلامين، أو للانتقال من غرض إلى آخر، ومثل ﴿هَٰذَا ۚ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، ومن هذا قول زهير بن أبي سلمى:

هذا وَلَيسَ كمَنْ يَعْيَا بخُطّتِهِ وَسْطَ النّديِّ إذا ما ناطِقٌ نَطَقَا[1]

قوله: ﴿هَٰذَاۚ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: هذا جزاء المتقين ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾؛ أي: المتجاوزين الحدَّ في الكفر والمعاصي، وهم أئمة الكفر، وخصَّهم بالوعيد وإن كان الحكم يشمل كل كافر؛ لأنهم كفرة في أنفسهم، وسبب في كفر غيرهم ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾؛ أي: شرَّ مرجع يصيرون إليه في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ بيان للمآب؛ أي: هو جهنم يدخلونها ويعذبون بها، والصَّلْي هو الإحراق بالنار ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ذمٌّ وشدة وعيد؛ أي: فبئس الفراش جهنم، و(بئس) فعل ماض لإنشاء الذم، والمهاد فاعل، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: ولبئس المهاد جهنم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: هذا العذاب للطاغين، وهو مبتدأ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾؛ أي: يؤمرون أن يذوقوه، ويقاسوا شدائده ﴿حَمِيمٌ﴾ خبر المبتدأ؛ أي: ماءٌ في غاية الحرارة، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ وهو صديد أهل النار، وهو نَتِنٌ بارد ﴿وَءَاخَرُ﴾؛ أي: وعذابٌ آخرُ ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾؛ أي: مِن مثله في الشدة والبشاعة ﴿أَزْوَٰجٌ﴾؛ أي: أصناف وأجناس، ولا يخفى ما في إبهام (آخَر) من التهويل.

ثم ذكر اللهُ ما يكون في النار من التلاوُم بين أهلها، وبراءة بعضهم من بعض؛ فقال سبحانه: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: هذا جمعٌ كثير دخل النار معكم، وهذا من قول الطاغين إذا ألحق بهم الأتباع ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ﴾؛ أي: لا مرحبًا بهم ولا أهلًا، وأصل الرَّحْب السعة، فهو دعاء عليهم بضيق المكان ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: داخلوها كما دخلناها، ومُقاسون حرَّها، كما قاسيناها، فما لهم فضل

(١) «ديوانه» (ص٥٥).

علينا ﴿قَالُوا﴾؛ أي: الأتباع وهم الفوج المقتحم ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾؛ أي: الدعاء الذي دعوتم علينا أنتم أحق به ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾؛ أي: قدَّمتم لنا العذاب وصَلْي النار بسبب إضلالكم لنا ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾؛ أي: بئس المقرُّ جهنم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: الأتباع ﴿رَبَّنَا﴾؛ أي: يا ربنا ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾؛ أي: هذا العذاب ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾؛ أي: مضاعفًا؛ لكفره، ولإضلاله لنا، ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ هذا سؤال من بعض أهل النار لبعض على سبيل التعجُّب، قائلين: ما لنا لا نرى في النار رجالًا كنَّا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار؟ يريدون المؤمنين من الفقراء وغيرهم، فهؤلاء بزعم المشركين أشرار؛ أي: أراذل لا خير فيهم، أو من الضالين ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بهمزة قطع هي همزة الاستفهام، وحُذفت من أجلها همزة الوصل ﴿سِخْرِيًّا﴾؛ أي: هل سخريتنا منهم وتحقيرنا لهم خطأ، فهم في الجنة اليوم ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾؛ أي: مالت عنهم أبصارُنا فلا نراهم معنا في النار؟ و﴿أَمْ﴾ هي المتصلة لوجود المعادل، وهو استفهام حقيقي، فهم مترددون بين كونهم غير أشرار خلاف ظنهم، أو أنهم أشرار، ولكن زاغت أبصارُهم عن رؤيتهم، وقريب من هذا الاستفهام قوله تعالى عن سليمان: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾؛ أي: المذكور من تحاور أهل النار ﴿لَحَقٌّ﴾؛ أي: ثابت لا بد أن يقع ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ بدل من (حقّ) يُفيد

البيان والتوكيد، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو تخاصُم أهل النار، وسمَّاه اللهُ تخاصُمًا؛ لأن التلاوُم شعبة من الخصومة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر الوعيد بعد الوعد.

٢ ـ أن مصير الطاغين شرُّ مآب.

٣ ـ المقابلة بين المتقين والطاغين ومصير الفريقين.

٤ ـ أنه يستحب للداعي إلى الله أن يجمع في موعظته بين الترغيب والترهيب.

٥ ـ التفصيل بعد الإجمال في وعد المتقين، ووعيد الطاغين.

٦ ـ إثبات النار، نعوذ بالله منها.

٧ ـ أن من أسماء النار جهنم.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١].

٩ ـ أن لأهل النار شرابًا من الحميم والغسَّاق، وأنواعًا أخرى من سيئ الشراب.

١٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢].

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥].

١٢ ـ أن من عذاب أهل النار ما لم يسمَّ.

١٣ ـ أن نار جهنم ليست في طبيعتها كنار الدنيا، وذلك من وجوه:

الأول: أنها لا تُتلف ما يُلقى فيها من الناس.

الثاني: أن أهلها يتكلمون فيما بينهم بالتلاعن والتخاصُم؛ بل مع غيرهم من المؤمنين في الجنة والملائكة: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، هذا وهم يصطرخون فيها، ويدعون الله.

الثالث: أنهم يسمعون ويبصرون أحيانًا.

الرابع: أنهم يأكلون ويشربون الزقوم والحميم، وكلُّ هذه الأمور لا تتأتَّى في نار الدنيا.

١٤ ـ أن أهل النار يدخلونها أفواجًا.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

١٦ ـ أن الأتباع من الكافرين يدخلون بعد المتبوعين.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

١٨ ـ اعتراف أهل النار بالربوبية لله.

١٩ ـ أن الأتباع يطلبون مزيد العذاب للمتبوعين.

٢٠ ـ أن عذاب النار يتفاوت.

٢١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

٢٢ ـ تفقُّد أهل النار لمن كانوا يسخرون منهم في الدنيا.

٢٣ ـ أن تخاصُم أهل النار فيما بينهم أمرٌ محقَّق، فيجب الإيمان به والقطع بحصوله.

٢٤ ـ التحذير من الكفر والطغيان واتباع أئمة الكفر والعصيان.

ولما ذكر نعيم المتقين وعقاب الطاغين، عاد إلى تقرير النبوة والتوحيد والبعث المذكور في أول السورة؛ **فقال سبحانه:**

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ أمرَ الله نبيَّه ﷺ أن يبلِّغ الناس أنه منذر، وأنه لا إلٰه إلا الله الواحد القهَّار، وأنه رب السماوات والأرض، وأنه العزيز الغفار، وأمْرَه أن يقول للناس: هذا القرآن نبأ عظيم، ومع ذلك أنتم عنه معرضون، وأني لم يكن لي علم بالغيب، وما أوحي إليَّ إلا أنما أنا نذير مبين.

▩ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾؛ أي: رسول محذِّر من عذاب الله، وهذا في مقابل قولهم: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: وما من معبود بحق إلا الله، وهذا في مقابل قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾؛ أي: الذي لا ثاني له، فهو المنزَّه عن المثيل والشريك ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾؛ أي: الغالب بعزَّته وكمال اقتداره، المعنى: قل لهم: إني مبعوث بهذين الأمرين: الإنذار والدعوة إلى التوحيد، وفي الجمع بين الاسمين الكريمين: الواحد القهَّار الدلالة على كمال قدرته تعالى، وغناه عن الشريك والمعين.

قوله سبحانه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومالكهما ومدبِّرهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: من جميع المخلوقات، وهذا إعلام بربوبيته تعالى لكل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: القويُّ الذي له القدرة التامة والإرادة النافذة فلا يُغلب، ولا يخرج شيء عن سلطانه ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾؛ أي: الكثير الستر للذنوب والعفو عنها؛ وهو تعالى مع خلقه هذه المخلوقات العظيمة وتسخيرها ومع كونه القويَّ الغالبَ؛ فهو تعالى غفَّار عظيم الرحمة والإحسان.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل لهم ـ أيها الرسول ـ وفي تكرير الأمر تنبيه على أهمية ما بعده، وأنه ينبغي الاعتناء به ﴿هُوَ﴾؛ أي: القرآن الذي أنذركم به ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾؛ أي: خبر عظيم الشأن ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: معرضون عنه لا تفكرون فيه ولا تلتفتون إليه، مع أن الإيمان به واتباعه فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة، وهذا تنبيه على ما هم فيه من الغفلة؛ لعلهم يرجعون.

ثم نبَّههم تعالى على بعض أدلة رسالته ﷺ، وهو أنه لم يكن له علم من قبل أن يوحى إليه؛ فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾؛ أي: وقل لهم: ليس لي علم بأخبار الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: وقت اختصامهم، واختصامهم هو حوارهم مع الله في شأن استخلاف آدم، وهو المذكور في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وما كان من مخاصمة إبليس لربه حين أمره بالسجود لآدم، فأبى واستكبر.

قوله سبحانه: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جملة ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ نائب فاعل، والاستثناء مفرَّغ؛ أي: لم يوح إليَّ في شأني إلا أني نذير مبين؛ أي: بيِّن النِّذارة، وخصَّ الإنذار مع أنه مبشر؛ لأن المقصود

الأول بالرسالة هو نِذارة المكذبين والمشركين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢]، فأُمر بالنِّذارة أولًا، وجملة ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ معترضة بين إيراد اختصام الملأ الأعلى على سبيل الإجمال، ثم إيراده في الآيات الآتية بعد ذلك على سبيل التفصيل.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات أصلَي الدين: التوحيد والرسالة.

٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله: الواحد والقهار، وما دلَّا عليه من صِفَتي الوحدانية والقهر.

٣ ـ إثبات الربوبية العامة.

٤ ـ أنه تعالى خالق السماوات والأرض وما بينهما، ومدبِّر أمرهما.

٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله العزيز والغفَّار، وما دلَّا عليه من صفتي العزة والمغفرة.

٦ ـ التنويه بعظمة القرآن.

٧ ـ إعراض المشركين عن القرآن.

٨ ـ أن الإعراض عن القرآن من سبيل المشركين.

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

١٠ ـ أنه لا علم للنبي ﷺ بالغيب إلا ما أطلعه الله عليه.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

١٢ ـ إثبات الملأ الأعلى، وهم الملائكة.

١٣ ـ اختصام الملأ الأعلى.

١٤ ـ إعلام الله نبيَّه ﷺ أنه ليس إلا نذيرًا.

١٥ ـ أنَّ النبي ﷺ مبيِّن للناس شرائع الدين من المأمورات والمنهيات.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

۞ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن قول الله للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ وأمْرَهم بالسجود إذا سوَّاه ونفخ فيه من روحه، ثم سجود الملائكة كلهم لآدم طاعة لله، والإخبارَ بإباء إبليس عن السجود، وتوبيخَ الله له على إبائه واستكباره، وما تعلَّق به إبليس من الشُّبهة في امتناعه من السجود: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، ثم طرد الله له، وحلول لعنة الله عليه.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ مبيِّن له ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ هو آدم عليه السلام، ولم يذكر من صفة الطين التغيُّر في اللون والرائحة وقد ذكر في سورة الحجر ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾؛ أي: أتممتُ خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾؛ أي: ونفختُ فيه روحًا من روحي؛ أي: من الأرواح التي خلقها الله، و﴿مِن﴾ للتبعيض، أضاف اللهُ الروحَ إلى نفسه المقدسة تشريفًا لها، وهو من إضافة المخلوق إلى الخالق،

والروح جسم لطيف يحيا به مَن أراد اللهُ أن يكون حيًّا إذا نفذ فيه، والنفخ المذكور نفخ حقيقيٌّ، وقد أضافه اللهُ إلى نفسه بصيغة الإفراد، ولا نعلم كُنهه، وقد أضافه اللهُ إلى نفسه بصيغة الجمع في قصة مريم؛ لأن النفخ كان بواسطة الملَك، قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

قوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾؛ أي: اسجدوا له تحيَّة وإكرامًا، لا سجود عبادة وتعظيم، وسجود التحيَّة كان جائزًا في الشرائع السابقة، ثم نُسخ في شريعتنا، كما في قصة يوسف حين سجد له أبواه وإخوته.

قوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: سجدوا بعد خلق آدم وتسويته ونفخ الروح فيه وصيرورته إنسانًا سويًّا ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ مؤكِّدان؛ أي: سجدوا جميعًا في وقت واحد، فـ (كُلٌّ) لإفادة الشمول و﴿أَجْمَعُونَ﴾ للاجتماع ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾؛ أي: بالَغ في التكبُّر والتعاظم فلم يسجد، ولم يذكر الإباء هنا؛ لأن الاستكبار يستلزمه ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وصار كافرًا بامتناعه من السجود، وإبليس ليس من الملائكة في الأصل ولكنه من الجن، قال سبحانه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، وكان يتعبد مع الملائكة، فأصبح كأنه منهم، وليس منهم؛ فهم مخلوقون من نور، وهو مخلوق من نار.

قوله سبحانه: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾؛ أي: قال الله: ما صرفك وصدَّك ﴿أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؛ أي: للذي خلقتُه بيديَّ، وإضافة الله الخلقَ إلى نفسه وتعدية الفعل إلى اليدين بالباء وذكر اليد بصيغة التثنية، دليل على أنهما يدان حقيقيتان لله تعالى، فنُثبتُهما على الوجه اللائق به سبحانه ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؛ أي: استكبرت الآن أم كنت من قبل ذا تكبُّر؟ و﴿أَمْ﴾ متصلة، وهو استفهام إنكار وتوبيخ وتعجُّب،

فأجاب الشيطانُ بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ﴾؛ أي: خير من آدم وأشرف وأفضل ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾؛ أي: لأنك خلقتني من نار ﴿وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾؛ أي: فكيف أسجد له؟! وقد كذب عدو الله؛ فإن الطين خير من النار؛ لوجوه متعددة، منها:

١ ـ أن الطين طبعه الرَّزانة، والنار طبعها الطيش.

٢ ـ أن الطين ما وضع فيه ينمو، والنار تُتلف ما يوضع فيها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾؛ أي: قال اللهُ له: فاخرج من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾؛ أي: مرجوم؛ أي: مُبعَد من كل خير ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾؛ أي: ملعون مطرود من رحمتي، واللَّعن واقع من الله كلامًا، وذكر اللعن بعد الرجم إشارة إلى كمال خسران إبليس ودوامه، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: إلى يوم القيامة، وحرف الجر ﴿إِلَىٰ﴾ لا مفهوم له، فلا يدل على انقطاع اللعنة عن إبليس عند مجيء يوم الدين، ومثل هذا الأسلوب يُعبَّر به عن الدوام.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات الكلام لله.

٢ ـ تكليم الله للملائكة.

٣ ـ إثبات الخلق لله.

٤ ـ قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى.

٥ ـ علم الملائكة بالمعنى الكلِّي للبشر.

٦ ـ خلق آدم من طين.

٧ ـ إثبات اليدين لله تعالى.

٨ ـ فضل آدم، وذلك من وجوه:

الأول: أن الله نفخ فيه من روحه؛ أي: من جنس الأرواح التي شرَّفها.

الثاني: سجود الملائكة كلهم لآدم.

الثالث: خلق الله آدم بيديه.

٩ ـ أن إبليس ـ وهو أبو الجن ـ مخلوق من نار.

١٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

١١ ـ امتناع إبليس من السجود لآدم.

١٢ ـ أن الحامل له على ذلك هو الاستكبار.

١٣ ـ كذب إبليس فيما ادَّعاه أن النار خير من الطين.

١٤ ـ أن الطين خير من النار، عكس ما تضمَّنته دعوى إبليس؛ فالطين طبعه الرزانة، والنار طبعها الطيش، والطين ما يُلقى فيه يحيا وينمو، والنار تُتلف ما يلقى فيها، كما أوضح العلماء.

١٥ ـ أن شُبهة إبليس مناقضة للعقل والشرع.

١٦ ـ أن القياس في مقابل النصِّ أفسدُ القياس، وهو قياس إبليس.

١٧ ـ اعتراف إبليس بالربوبية لله؛ لقوله: ﴿خَلَقْتَنِى﴾، ﴿وَخَلَقْتَهُۥ﴾.

١٨ ـ طرد إبليس من الجنة.

١٩ ـ سوء عاقبة التكبُّر على الله.

٢٠ ـ أن الأمر للوجوب.

٢١ ـ حُلول لعنة الله على إبليس.

٢٢ ـ أن لعنة الله لا تُفارقه إلى يوم القيامة.

٢٣ ـ أن مِن عقوبات بعض العصاة اللعن من الله.

٢٤ ـ إثبات اليوم الآخر.

٢٥ ـ أن من أسماء يوم القيامة يوم الدين.

ثم بيَّن تعالى ما قال إبليس وما أجيب به؛ **فقال سبحانه:**

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ عن طلب إبليس الإنظار، وأنه أُجيب إلى ذلك، والإخبارَ بتوعُّد إبليس لذرية آدم بالإغواء إلا مَن أخلصه الله، وكان من المخلِصين، والإخبارَ بما توعَّد اللهُ به إبليس ومَن تبعه من الجن والإنس، ثم أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يخبر بأنه لا يسأل الناس أجرًا على دعوتهم، فما هذا القرآن إلا ذكر للعالمين، وأن الناس سيعلمون صدق هذا القرآن، وحقيقة مُخبَره بعد حين، وذلك يوم يُبعثون ويُحشرون ويُحاسَبون.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾؛ أي: أمهلني ولا تهلكني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: إلى اليوم الذي يُبعث فيه الأمواتُ من قبورهم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: من الذين أُخِّرتَ آجالهَم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾؛ أي: المعلوم لله تعالى، وهو يوم النفخة الأولى؛ وهو نهاية الحياة الدنيا، فيموت مع الأموات ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾؛ أي: أُقسم بعظمتك وقدرتك وقوتك، وأقسم اللَّعينُ بالعزة من بين الصفات؛ لأن العزة هي القوة والغلبة، وهو في مقام التهديد لبني آدم، والتهديد إنما

يتحقق بالقوة والغلبة، فكان معنى العزة مناسبًا لغايته في هذا التهديد، وقد أشبهه بعضُ أتباعه قبل أن يسلموا، وهم سحرة فرعون، فأقسموا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ جواب القَسَم؛ أي: لأحملنَّهم على الغَيِّ بتزيين المعاصي لهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد؛ أي: جميع بني آدم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾؛ أي: الذين أخلصتَهم لطاعتك، وأخلصوا دينَهم لله، والاستثناء متصل؛ لأن العباد المخلَصين هم مِن جملة بني آدم الذين توعدهم الشيطانُ بالإغواء، وإنما استثناهم؛ لأنه لا سلطان له عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

قال سبحانه: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ﴾؛ أي: فالحقُّ قسَمي ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ جملة معترضة بين القَسَم وجوابه؛ أي: لا أقول إلا الحق، فهي مؤكِّدة لما قبلها ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾؛ أي: من جنسك من ذريتك، وهو جواب القَسَم ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أتباعك من ذرية آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للتابع والمتبوع.

وبعد هذه القصص والمواعظ التي تضمَّنتها السورة أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يواجه المشركين بقوله: ﴿مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: لا أطلب منكم مالًا على دعوتكم وتبليغ رسالة ربي؛ فما هو إلا النصح وإرادة الخير بكم، و﴿مِنْ﴾ حرف جر زائد للتنصيص على عموم النفي ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾؛ أي: لا أتكلَّف شيئًا من تلقاء نفسي، ولا أقول إلا ما يوحي إليَّ ربي، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: يا أيها الناس، من عَلم شيئًا فليقُل به، ومَن لم يعلم فليقُل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله ﷻ لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣١)، ومسلم (٢٧٩٨).

قوله سبحانه: ﴿إِنۡ هُوَ﴾؛ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: موعظةٌ للثقلين كافة، وسمَّاه اللهُ ذكرًا؛ لأنه يذكِّر العالمين بربهم وباليوم الآخر، ويعرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وهذا من التعبير عن اسم الفاعل بالمصدر مبالغة ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ تهديد للمشركين، وهو جواب قَسَم مقدَّر؛ أي: والله لتعلَمُنَّ صدق ما أنبأكم به القرآن من الوعد والوعيد وغيرهما ﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾؛ أي: حين تكون الغلبة للإسلام وأهله، أو يوم تبعثون، ولا ينفعكم العلم حينئذ في ذلك اليوم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن نَظِرة إبليس إلى أجل معلوم.

٢ ـ علم إبليس بوجود ذرية لآدم وبالبعث.

٣ ـ أن إبليس سأل النَّظِرة وأجيب بذلك.

٤ ـ أن لله حِكَمًا في خلق إبليس وإنظاره.

٥ ـ أن الله قد يستجيب دعاء الكافر والفاسق.

٦ ـ خلود إبليس في الدنيا.

٧ ـ تفسير اللَّعن المطلق في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥]، وأن المراد به لعنة الله، وهو من تفسير القرآن بالقرآن.

٨ ـ أن يوم البعث يوم معلوم.

٩ ـ اعتراف إبليس بربوبية الله.

١٠ ـ إيمانه بعزة الله.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٢].

١٢ ـ علم إبليس أنه لا يُسلَّط على جميع ذرية آدم.

١٣ ـ أن الإخلاص سبب للوقاية من الشيطان.

١٤ ـ إثبات العبودية الخاصة.

١٥ ـ أن الله يصطفي مِن عباده مَن يُخلِصهم له، ويجعلهم مخلِصين.

١٦ ـ أن قول الله كلُّه حق.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**وقولك حق**»[(١)].

١٨ ـ وعيد الله لإبليس ومَن تبعه بعذاب جهنم.

١٩ ـ أن جهنم تُملأ بإبليس ومَن تبعه من الجن والإنس.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

٢١ ـ أن إبليسَ أعظمُ سببٍ في ضلال بني آدم.

٢٢ ـ أن دعوة الرسول ﷺ محضُ نصحٍ للخلق، لا يسأل عليها أجرًا.

٢٣ ـ أن الداعي إلى الله لا ينبغي أن يسأل الناس أموالهم.

٢٤ ـ براءة النبي ﷺ من التكلُّف.

٢٥ ـ أن كلَّ ما يخبر به الرسول ﷺ أو يأمر به، فهو من عند الله بوحي أوحاه.

٢٦ ـ أن في الناس مفترين على الله.

٢٧ ـ أن القرآن ذِكر؛ أي: تذكير للعالمين.

---

(١) رواه البخاري (١٠٦٩)، ومسلم (٧٦٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٢٨ ـ التناسُب بين أول السورة وآخرها، قال في أولها: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وقال هنا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢٩ ـ أن ما أخبر اللهُ به من الوعد والوعيد والجزاء سيرى الناسُ مصداقه يوم القيامة.

٣٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩].

تم تفسير هذا الجزء، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
سورة يسّ	٥
سورة الصافات	٨٥
سورة (صّ)	١٨٤
فهرس الموضوعات	٢٥٣